صحوة الفكر الإسلامي في القرن التاسع عشر الميلادي

د٠حوري ياسين الهيتي/مديرية الأوقاف

المقدمة :

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على حبيبه المصطفى وعلى آله وصحبه أئمة الخير والهدى وعلى من سار على نهجهم واهتدى بهديهم ، وبعد :

فهذا بحث متواضع يهدف إلى تشخيص أسباب نهوض المسلمين في ماضيهم وتخلفهم في حاضرهم كتبته بشكل مبسط وعبارة سهلة ، وعرضت فيه ما تلقّح من أفكار وعقول المبدعين في المفكرين والمصلحين المسلمين في القرن التاسع عشر الميلادي الذي شهد مطلع نهضة المسلمين من كبوتهم . فراح أولئك المفكرون ليجردوا أقلامهم النيّرة ويصبّوا عصارة أفكارهم وهم يتحرّقون ألماً وحسرة على ما حل بالمسلمين من فرقة وضعف وتمزّق وتخلف وانحلال فصاروا يشخصّون الداء ويصفون الدواء لهذه الأمة التي ابتليت بفتن ومحن كثيرة عصفت بفكرها وحضارتها وداست كرامتها وعزتها وفرقتْها أيدي سبأ . وإنه لمن نافلة القول أن أستطرد في تعداد تلك الابتلاءات واستفيض بشرح تلكم المعاناة الطويلة التي مرّ بها المسلمون في فترات مظلمة مضت من تاريخهم المليء بالأحداث والصراعات الساخنة .

فلابد والحالة هذه من ظهور بعض المفكرين المصلحين لتجديد الفكر الإسلامي والدعوة إلى قيام مذهبية إسلامية شاملة تزيح عن سبيل تقدم المسلمين كل المذاهب والأفكار الهدامة والانحرافات والممارسات الخاطئة التي يتشبث بها من لهم مصلحة في تمزيق وحدة المسلمين وإضعاف شوكتهم وذهاب ريحهم . وقد قسمت البحث إلى : مقدمة وأربعة مباحث تكلمت في المبحث الأول عن أسباب تخلف المسلمين وفي المبحث الثاني تحدثت عن كيفية التخلص من تراكمات الماضي وعن كيفية تكوين المجتمع الإسلامي الأول وتحقيق العدل الرباني في الأرض ثم عرجت على موضوع الغزو الفكري وقارنت بين الإسلام والديمقراطية . ثم تناولت في المبحثين الثالث والرابع مسألة الأخذ بأسباب النهوض والتقدم وإسهامات بعض المفكرين المسلمين وعن تجديد الحضارة وتقويم المذهبية الإسلامية وتجديد آلية العمل واستحضار الماضي . والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل ..

المبحث الأول (أسباب تخلف المسلمين)

حالة المسلمين لا يرضى بها من يحمل في قلبه مثقال ذرة من إيمان سواءً من الجهة الدينية أو الدنيوية . وثمة سؤال يطرح نفسه وهو : لماذا ارتقى الأوروبيون والأمريكان واليابانيون ارتقاء هائلاً ؟ وهل يمكن أن يصبح المسلمون مثلهم في هذا الارتقاء إذا ما أخذوا بنفس الأسباب التي أخذ بها أولئك مع المحافظة على دينهم الإسلامي ؟

إن من ينظر إلى واقع المسلمين اليوم يرى أنهم متأخرون رغم امتلاكهم ثروات تفوق ما يمتلكه الأوروبيون .

لا ينكر أن في العالم الإسلامي حركة شديدة نحو التغير في الأمور المادية والمعنوية ويقظة جديرة بالإعجاب والتقدير ، وقد تنبه لها الأوروبيون وتوجس بعضهم منها وهذا الخوف ظاهر في كتاباتهم ، بيد أن هذه الحركة وتلك اليقظة لم تكن كافية للوصول بالمسلمين إلى الدرجة التي يطمحون إليها وهي مساواتهم بالأمم الأوروبية أو الأمريكية في سلم التطور والرقي .

وقبل الخوض في أسباب الهبوط والتراجع يجب أولاً أن نبحث في أسباب تقدمهم وارتقائهم في الماضي . ومن أسباب ارتقاء المسلمين قديماً :

أ – الديانة السماوية التي نقلتهم نقلة هائلة من الفرقة والشتات إلى الوحدة ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الله ، وقد ظهرت في جزيرة العرب فدانت بها قبائلهم وتحولوا بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة ومن الجاهلية إلى المدنية ومن القسوة إلى الرحمة وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحاً جديدة صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة ومجد وعرفان وثورة وبنيان ، وفتحوا نصف الكرة الأرضية في نصف قرن من الزمان ، ولو لا ما حصل بينهم من خلاف

منذ أواخر خلافة عثمان وإبان خلافة علي رضي الله عنهما ، لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم أحد .

ومن الأدلة على ذلك إعجاب بعض القادة الأوروبيين بالقيادة الإسلامية فقد أدهشت فتوحات المسلمين وانتصاراتهم الهائلة على الرغم الخلاف الذي دب بينهم عقول المفكرين والمؤرخين وقادة الدول من الأمم الأخرى فقد أذهلت هذه الفتوحات أعظم الفاتحين الأوروبيين وهو نابليون بونابرت ((فقد نقل عن(لاكاس) الذي رافق نابليون إلى منفاه في جزيرة (سانتي هيلانه) وغيره من المقيدين لحوادث نابليون وأقواله حيث ثبت قطعياً من أقوال ذلك الفاتح العظيم وسيرته أيام كان بمصر أنه كان معجباً بمحمد وعمر وبكثير من أبطال الإسلام وأن نفسه حدثته لما كان بمصر أن يتخذ الإسلام ديناً له ..)) (١)

ب–أخذهم كتاب الله في يد والسيف في اليد الأخرى فقد أوجد الإسلام من العرب أمة تختلف تماماً عن الأمة العربية السابقة حيث بعثهم بعثاً جديداً وأخرجهم من جزيرة العرب وكتاب الله في إحدى أيديهم والسيف في اليد الأخرى . (٢)

ج–أخذهم بالأسباب قال الله تعالى : ((**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**)(**الرعد: من الآية١١**)

والنبي صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب في كل أعماله كما في غزوة بدر وغزوة الخندق يفتحون الأرض ويسودون ويتمكنون في مشارق الدنيا ومغاربها فهل يا ترى لا يزال نفس السبب الذي ساد به سلفنا الصالح موجوداً فينا اليوم وقد تأخرنا رغم وجوده بيننا ، أم ارتفع ولم يبق من الإيمان إلا اسمه ومن الإسلام إلا رسمه ومن القرآن إلا الترنم به دون العمل بأوامره ونواهيه ؟

لقد فقد المسلمون اليوم السبب الذي ساد به أسلافهم ولم يبق منه إلا كالوشم في ظاهر اليد . قال الله تعالى : ((**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**)(**الرعد: من الآية١١**)

- وكيف ينصر الله أمة قعدت عن العمل ولم تأخذ بالأسباب ، هذا أمر مخالفة للحكمة الإلهية ، إذ كيف تكون عزة دون استحقاق وفوز دون سعي ولو كان الأمر كذلك لأيد الله رسوله واكرم مخلوقاته محمداً صلىالله عليه وسلم ولم يحوجه إلى القتال والمنازلة ومقارعة الأعداء ، واتباع سنن الكون الطبيعية .

قال الله تعالى : ((**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**) (**التوبة:١١١**)

فأين حالة المسلمين اليوم من هذا الوصف وأين حالتهم من سلفهم الذين كانوا يتهافتون على الموت لإحراز الشهادة في سبيل الله بل كانوا أحياناً ينشدون الموت ولا يجدونه فيحزنون لعدم نيلهم الشهادة في سبيل الله ورفع راية الإسلام .

فمن أسباب تخلف المسلمين اليوم :

١- عدم الأخذ بالأسباب وذلك بتقاعس المسلمين عن العمل والبحث فظلوا في تخلف وانحطاط .
٢- جهلهم بدينهم ومصدر عزتهم ، فالدين يدعوهم إلى العلم وطلبه وجعله فريضة على كل مسلم .
٣- ومن بين أهم أسباب تأخر المسلمين اليوم الجهل والتعصب الأعمى .وعدم التمسك بمعالي الأخلاق التي حث عليها القرآن الكريم وأمر بها نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم هذه الأخلاق والفضائل التي تمسك بها سلفهم الصالح وجعلوها نصب أعينهم ، ورحم الله شوقي حيث يقول :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن عجب ما يتقوّل به الأعداء اليوم من أنهم يتهمون هذا الدين بأنه هو السبب في تأخر المسلمين وتراجعهم ، ذلك أنه يصدّ المسلمين عن الأخذ بأسباب العلم والتقدم والرقي ، بينما المتسبب في هذا هم المسلمون وليس الإسلام .

ولله در القائل : **يقولون في إسلام ظلم بأنه يصد بنيه عن سبيل التقدم**

فإن كان ذا حقاً فكيف تقدمت أوائله في عصرها المتقدم

لقد نسي هؤلاء أو تناسوا كيف جعل الإسلام من العرب ومن غيرهم أمة قادت العالم وحكمته قروناً طويلة وكان المسلمون خلالها رسل خير وهداية وبناة حضارة وعمران في أرجاء المعمورة ، حيث قطعت حضارتهم شوطاً

وامتازت بخصائص استقلت بها عن سائر حضارات الأمم الأخرى ، ولا تزال نظريات علماء المسلمين وأحكامهم الفقهية منار علم وهداية تدرّس في أرقى جامعات العالم حتى اليوم .

٤ – نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم ، فقد حل بنا الهوان حينما نبذنا كتاب الله وراء ظهورنا واكتفينا منه بالتلاوة والترنم وهجرنا أوامره ونواهيه وزهدنا عن ذلك التراث العلمي والفقهي الضخم الذي أهداه لنا علماؤنا المجتهدون ، ففرّطنا في تطبيقه والنظر في مفرداته والغوص في معانيه بينما استفاد منه أعداؤنا بحثاً وتمحيصاً وتحقيقاً وطبقوا كثيراً منه في منهجهم النقدي الذي رسموه على ضوء ما اطلعوا عليه من ذلك التراث الفكري الواسع .

وصدق من قال من المستشرقين وهو يصف هذه الحالة حيث يقول : ((زرت بلاد الشرق فوجدت المسلمين ولم أجد الإسلام ، وزرت بلاد الغرب فوجدت الإسلام ولم أجد المسلمين)) .

٥– ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين اليوم فساد أخلاق أمرائهم ، حيث يظن هؤلاء الزعماء أن الأمة خلقت لهم يفعلون بها ما يشاؤون . وقد ترسّخ فيهم هذا المبدأ وهذا المفهوم الخاطئ حتى إذا ما حاول المسلمون والمصلحون الدينيون والاجتماعيون أن ينصحوهم بطشوا بهم بطشاً كبيراً . وقد أصبح الأعداء يتهمون الدين بأنه سبب تخلفهم .

ونحن نرى الأمير شكيب أرسلان يرجع سبب تدهور المسلمين وانفراط عقدهم واضمحلال دولتهم إلى العامل الديني الذي كان سبباً في تقدم أسلافهم وعزة أجدادهم . وقد يسأل سائل : أنه لما كان السبب هو عدم تمسك المسلمين اليوم بدينهم وتطبيق أحكامه فلماذا إذن تقدم غير المسلمين من الأمم الأخرى رغم كونهم كفاراً ومنهم علمانيون أيضاً ؟ والجواب عن هذا من وجهين :

الوجه الأول : أن هؤلاء الكفار أخذوا بالأسباب وتسلحوا بالعلم الذي اقتبسوه من علوم المسلمين الأوائل وعملوا وجدّوا وثابروا حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من تقدم ورقي في حين قعد المسلمون عن العلوم وطلبها وعن العمل وطرحوا بالأسباب جانباً واكتفوا من البحر بالوشل ومن الذهب بالبهرج .

الوجه الثاني : أن الله عز وجل جعل عزة هذه الأمة التي هي وسط بين أمم الأرض جعل عزها وتقدمها وسعادتها بالتمسك بأهداب هذا الدين لأمر اقتضته الحكمة الإلهية ، وربما كان ذلك لأنهم حملة رسالة الإسلام إلى العالم وفيهم أنزل الله كتابه و وحيه .

ومن هنا قال الصديق رضي الله عنه : ((لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)) .

المبحث الثاني(كيفية التخلص من تراكمات الماضي)

سبق القول بأن العرب كانوا قبائل متناثرة متنافرة لا تجتمع على شيء على الرغم من وجود كل مكونات التجمع من وحدة الأرض واللغة والثقافة والتاريخ وسبب ذلك يعود إلى العصبية القبلية والثارات الدائمة وغارات السلب والنهب واشتغال كل قبيلة بشئونها الخاصة ، وحرصها على مفاخرة غيرها واستقلالها على سواها .

هذه الأسباب جعلت تجمع القبائل حتى على بعض القضايا الأرضية البحتة أمراً لا يخطر على بال فرد من أفرادها ، حتى في فرصة التجمع السنوي في موسم الحج مثلاً .

ومن هنا انتشلهم الإسلام – كما يقول الأستاذ / سيد قطب : لا ليكوّنوا تجمعاً قومياً كما يمكن أن يحدث في أية جاهلية من جاهليات التاريخ ، ولا ليكوّنوا تجمعاً وطنياً تحت قيادة زعيم منهم ينشئ منهم دولة موحدة ذات كيان وحدود ، ولكن لينشئ منهم تجمعاً فريداً في التاريخ ، لينشئ منهم أمة العقيدة التي استحقت من الله وصفها بهذا الوصف العظيم **((كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)(آل عمران: من الآية ١١٠)**

والذي يلحظ النقلة الهائلة التي انتقلها العرب من شتاتهم المتناثر ليكونوا خير أمة أخرجت للناس ، لا بد أن يأخذه العجب من هذا التحول الهائل في فترة من عمر الزمن كأنها لحظات (٣)

ادعى البعض من دعاة القومية العربية أو دعاة التفسير المادي للتاريخ بأن العرب كانوا وشيكين من ذوات أنفسهم على التجمع القومي لطرد الروم والفرس من أطراف جزيرة العرب ، أو القيام بثورة اشتراكية من الفقراء على الأغنياء تنقل السيادة من الآخرين إلى الأولين . فهذا تحمل ومجانبة للحقيقة والواقع لا يستحق الرد عليه .

كيفية تكوين التجمع الإسلامي الأول : –

١– بدا هذا التجمع بأولئك الأفراد القلائل الذين تجمعوا حول الرسول صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم متخفّين عن عيون الناس .

٢– قطعوا قرابة الدم والنسب وتوجهوا إلى كلمة التوحيد متمسكين برباط العقيدة التي وحّدت تلك القلوب حول الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين الأوس والخزرج فذاب ما بينهما من نزاع وصراع استمر فترة طويلة من الزمن وصار بينهما ذلك التآلف والإخاء الذي منّ الله به عليهم بقوله تعالى :((**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً)(آل عمران: من الآية١٠٣)**٠ ثم آخى بين المهاجرين والأنصار تلك المؤاخاة العجيبة الفريدة في التاريخ ،حيث كان الأنصار يتنازلون عن شطر ما يملكون للمهاجرين عن طيب خاطر ودونما إلزام من الله ولا رسوله ويؤثرون المهاجرين على أنفسهم حتى نزل فيهم قوله تعالى :(**وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر: ٩)**

ولم تكن المؤاخاة بين شريف وشريف بل آخى بين عمه حمزة ومولاه زيد وهذه المؤاخاة ذابت فيها كل الفوارق وأصبح المقياس هو قوله تعالى : (**(ا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُم)(الحجرات: من الآية١٣)** فانصهرت الطبقات داخل بوتقة الإيمان والعقيدة .

٣– **تحقيق العدل الرباني** : قال تعالى:(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)(النساء: من الآية١٣٥)** هذا أمر رباني لهذه الأمة بتحقيق العدالة الإلهية في واقع الحياة ، وقد ربطَ هذا الأمر الرباني بحقيقة الإيمان ولقد كان الرعيل الأول من هذه الأمة هم القمة العليا في تحقيق العدل الرباني في واقع الأرض بصورة لم تكن معهودة من قبل حتى في الأمم التي يوصف حكامها بالعدل ((أعد الله هذه الأمة لتكون رائدة البشرية كلها إلى الخير والشاهدة عليها يوم القيامة ، وكفلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بتربيتها لهذا الهدف العظيم)) (٤)

#وثمة شواهد كثيرة على تحقيق معاني العدالة في بلاد المسلمين نكتفي بذكر حادثتين مشهورتين منها:–

الحادثة الأولى : حينما قام يهودي بسرقة درع الإمام علي كرم الله وجهه وكانت قد سقطت من عنده وهو حينئذٍ أمير المؤمنين ، فقاضى اليهودي إلى شريح القاضي وهو متيقن تمام اليقين من أنها درعه وباستطاعته أخذها من اليهودي بالقوة ، إلا أنه لم يلجأ إلى سلطان الخلافة ولم يأمر باعتقال السارق بل لجأ إلى القضاء ليأخذ له حقه . وحينما مثل الإمام علي واليهودي أمام القاضي نادى شريح أمير المؤمنين بكنيته : يا أبا الحسن ولم يُكنِّ اليهودي فغضب علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه غضبة الحق وقال للقاضي : إما أن تُكنيَ الخصمين معاً أو تدع كنيتهما معاً . ثم سأل شريح أمير المؤمنين عن قضيته فقال علي : الدرع درعي ولم أبع ولم أهب . فسأل شريح اليهودي : ما تقول ؟ فقال : الدرع درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب . فيطلب شريح من أمير المؤمنين علي البينة وهو يعلم يقيناً أنها درع الإمام علي ولكنه القضاء الإسلامي العادل وشروطه المشروطة : البينة على من أدّعى واليمين على من أنكر . فقال أمير المؤمنين : صدق شريح مالي بيّنة ، فلم يغضب ولم يعنّف القاضي لأنه طلب منه البيّنة على دعواه فحكم شريح بالدرع لليهودي ، فأخذ اليهودي الدرع ومضى وهو لا يكاد يصدق نفسه ثم عاد بعد لحظات وهو يقول : أمير المؤمنين يقاضيني إلى قاضيه فيقضي عليه ، إن هذه أخلاق أنبياء أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، الدرع درعك يا أمير المؤمنين خرجت سقطت من بعيرك الأورق فاتبعتها فأخذتها . فيقول علي كرّم الله وجهه : أما إذا أسلمت فهي لك .

الحادثة الثانية : حينما تسابق نجل عمرو بن العاص والي مصر مع شاب قبطي فسبقه القبطي فضربه ابن عمرو بن العاص بالعصا وقال :خذها وأنا ابن الأكرمين ، فذهب والد القبطي إلى المدينة ليشكو مظلمته إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال عمر وهو يناوله العصا : اضرب ابن الأكرمين ، ثم التفت إلى عمرو بن العاص فقال له كلمته المشهورة الخالدة : يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . هاتان الحالتان خير شاهد على العدل الرباني الذي كان يمارسه قادة المسلمين وزعماؤهم ويطبقونه بحق رعايا الدولة الإسلامية الذين كانوا يرزحون تحت وطأة الأمم الأخرى كالرومان وغيرهم حيث كان الأقباط يعيشون تحت

الحكم الروماني في ذلٍ مرير رغم اشتراكهم مع الرومان في العقيدة المسيحية ، وذلك بسبب اختلاف المذاهب . أليس في هذا دلالة واضحة وأكيدة على تحرر هذا الرجل القبطي من عبودية الرومان فوجد متنفساً في ظل الدولة الإسلامية فراح يعبر عن حريته وكرامته وذلك برفع شكواه إلى خليفة المسلمين ليقتص له من ابن والي مصر . فما أروعه من عدل وما أروعها من كرامة وحرية يعيشها رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين .

الغزو الفكري

تعريفه : يقصد بالغزو الفكري الوسائل غير العسكرية التي اتخذها الغزو الصليبي لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية وصرف المسلمين عن التمسك بدينهم وعقيدتهم .

بدايته : بدأ الصليبيون بهذه الوسائل بعد هزيمتهم على أيدي المسلمين المجاهدين بقيادة المجاهد البطل صلاح الدين الأيوبي رحمه الله . بعد أن فكّر لويس التاسع ملك فرنسا في حينه بما حل بقومه وهو في سجنه في مدينة المنصورة ثم عاد ليقول لقومه : إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا تقاتلوهم بالسلاح وحده ، فقد هزمتم أمامهم في معركة السلاح – ولكن حاربوهم في عقيدتهم فهي مكمن القوة فيهم . فلما عادوا لغزو المسلمين مرة أخرى لم يكتفوا بالسلاح وحده ولكنهم استصحبوا معهم تلك الوسيلة الخبيثة التي يطلق عليها اسم (الغزو الفكري) . والهدف الأخير من هذه الوسيلة هي اقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين وصرفهم عن التمسك بالإسلام .

وأما الوسائل التي سلكوها لتحقيق هذا الهدف فهي على كثرتها تنحصر في مجالين أساسين وهما :

١ – مناهج التعليم ٢ – وسائل الإعلام

يحكى عن جلادستون رئيس وزراء بريطانيا يومئذٍ أنه قام في مجلس العموم البريطاني وأشار إلى المصحف الشريف فقال:(ما دام هذا الكتاب في أيدي المصريين فلن يقر لنا قرار في تلك البلاد) . (٥)

وفي مؤتمر المبشرين الذي عقد بالقاهرة عام ١٩٠٦م قام (الأب زويمر) وهو مبشر بروتستانتي وكان مقرراً للمؤتمر بعد أن استمع لأقوال من سبقه من الخطباء ومقترحاتهم حول التبشير وما حققه من نتائج فقال : (لقد استمعت إلى إخواني الخطباء ولست موافقاً على ما يقولون) (٦)

فليست مهمتنا هي تنصير المسلمين ولكن مهمتنا هي صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام وفي ذلك نجحنا نجاحاً باهراً بفضل مدارسنا التبشيرية والسياسة التعليمية التي وضعناها للبلاد الإسلامية . (٧)

وهذه أقوال صريحة لا تحتاج إلى تعليق .

الإسلام والديمقراطية

س/ هل الدين الإسلامي دين ديمقراطي ؟

قد يذهب البعض إلى مزج الإسلام بالديمقراطية واعتبار الإسلام نظاماً ديمقراطياً أو أنه يتقبل النظام الديمقراطي أو يسايره لمجرد وجود تشابه والتقاء في بعض الجوانب .

إن هذا الالتقاء العارض بين الديمقراطية والإسلام في الحقوق والضمانات وفي مبدأ الشورى لا يعطينا الحق في مقارنة الإسلام – وهو دين رباني ونظام إلهي – بنظام جاهلي وبمفهوم أرضي ، فهذا لا يجوز في عقيدة المسلمين ، حيث لا ينبغي أن يعرف الإسلام بالأنظمة الوضعية وإنما تعرف هذه الأنظمة بالإسلام وموافقتها له من عدمها .

وليس في هذه المقارنة امتداحٌ لدين الله الذي ارتضاه للبشرية جمعاء ولا دفاعٌ عن هذا الدين الحنيف . عن هذا المفهوم الخاطئ يقول البعض : (إنها الهزيمة الداخلية تندّس إلى أفهامنا دون أن نحسّ ، وتجعلنا نعتقد أن النظام الربّاني في حاجة إلى دفاع وتبرير ، كما تجعلنا نعتقد أننا نمتدح النظام الرباني بأن نقول للناس أنه يحتوي على الفضائل التي تحتوي عليها النظم السائدة اليوم) (٨) .

إنها الهزيمة التي أصابت المسلمين في مواجهة الغرب الظافر المتغلب الذي غلب على بلاد الإسلام ،فلو كنا واثقين من أنفسنا تمام الثقة لما سايرنا هؤلاء القوم في ديمقراطيتهم وقوانينهم التي هي من وضع البشر .

أوجه الخلاف بين الإسلام والديمقراطية

١- في الإسلام يُعبد الله وحده دون شريك له، وتحكم شريعة الله عز وجل عنواناً على التوحيد وتحقيقاً له في عالم الواقع . وفي الديمقراطية يُعبد غير الله وتحكم شرائع البشر عنواناً على عبادة غير الله وتوكيداً لها في عالم الواقع .

٢- وفي الإسلام يزكى الإنسان ليحتفظ بإنسانيته في أحسن تقويم ، وفي الديمقراطية ينكس الإنسان فيهبط أسفل سافلين . (٩)

٣- في الإسلام مصدر التشريع هو الخالق عز وجل ، وفي الديمقراطية مصدر التشريع هم البشرالذين يخطئون في الغالب .

٤- في الديمقراطية حكم الشعب بواسطة الشعب وذلك بتولي الشعب السلطة التشريعية بينما في الإسلام مصدر التشريع هو الخالق عز وجل .

في الديمقراطية لا يعيرون أهمية للقيم الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية فلقد كان للحرية الفردية التي رفع الغرب شعارها – سواءً في التفكير أو في السياسة أو المال – آثارها الهامة التي عبرت بالغرب إلى عصر النهضة والتطور ،وهي تعتبر بحق رد فعل لأوضاع القرون الوسطى في هذه المجالات الثلاثة . وهذه الحرية الفردية هي التي حملت على قيام الثورات في أوروبا وأمريكا الشمالية بعد ذلك ، وهي التي بقيت هدفاً لتلك الثورات ، ومحوراً تدور حوله حياة شعوبها بعد نجاحها لكن رد الفعل هذا ولّد الغلو في استخدامه وتطبيقه .

لذا نرى الحرية الفردية التي تمخضت عنها النهضة الأوروبية وفعلت فعلها في الثورات التي بعدها ، وقد فرضت نفسها على جميع جوانب الحياة في المجتمعات الأوروبية والأمريكية التي تعرف الآن بالمجتمعات الغربية . (١٠) وقد نتج عن الحرية الفردية فكرة (النقد الحر) لنظام الحكم وللقوانين التي تحكم المجتمع وهيأت لإيجاد رأي عام سياسي تبلور فيما يسمى بالنظام الديمقراطي وهو يتكون من ثلاث سلطات مستقل بعضها عن بعض :

١ – السلطة التشريعية ٢ – السلطة القضائية ٣ – السلطة التنفيذية .

والدولة في ظل النظام الديمقراطي لا تتدخل في حرية الفرد ، وإنما تصون هذه الحرية وتحفظها ، فهي نظام خدمات وليست نظام انتاج حيث تترك للأفراد حرية المنافسة وحرية النشاط للحافز الفردي .

ومجموع هذه الجوانب الثلاثة وهي : ١ – التفكير ٢ – السياسة ٣ – المال . على نحو ما توحي به الحرية الفردية ، يكوّن ما يسمى بالنظام الديمقراطي في عرف الغربيين) (١١)

وقد تطّرف الغربيون في استخدام حق الحرية الفردية إلى الحد الذي يسمح للفرد أن يفعل ما يشاء في حق نفسه من نبذ للأعراف والقيم الاجتماعية فأطلقوا العنان للسفور والتبرج والعُرِيّ ، وسنّوا القوانين التي تبيح الشذوذ الجنسي ، وأباحوا كثيراً من المحظورات كمعاشرة الأجنبيات والخيانة الزوجية إلا أن تشتكي الزوجة على زوجها .

الصراع بين الإسلام والعلمانية

إن الصراع في المجتمعات الإسلامية المعاصرة بين الإسلام والعلمانية أصبح صراعاً داخلياً بعد أن وطّنه الاستعمار وخرّج عليه أجيالاً متتابعة ، أصبح صراعاً في واقع الأمر بين قوى من المجتمع غير متكافئة . وهذه القوى أو الطبقات هي :

١- الطبقة الحاكمة : وهي طبقة المثقفين والموجهين الذين يحكمون على أساس من العلمانية وإن كانوا لا يجاهرون بها لكنهم يتسترون خلفها .

٢- طبقة لا تملك إلا الإذعان : وهي طبقة المتدينين من الجماهير التي تعتقد الإسلام كدين لكنها لا تملك فهمه وعرضه .

٣- طبقة تبارك النظام وتفتش باسم الإسلام عن مبررات نظام الحكم القائم ، وهي طبقة المنتسبين إلى الدعوة الإسلامية في كثير من البلاد الإسلامية ، طبقة تحترف العمل في حقل الدعوة ، لكن احترافهم هذا – مع فهمهم الناقص والمشوّه – يحول دون الإيمان به إيماناً يمكن لوجوده .

وعن هذا يقول الدكتور محمد البهي وهو يتساءل : هل سيبقى الإسلام ؟ هل يسود مرة أخرى في مجتمع المسلمين المعاصر ؟ هل يتجدد الإيمان به ؟ هل يحسن المؤمنون به عرض مبادئه ونظامه ؟

ثم يجيب عن هذه الأسئلة قائلاً : (إن وجود الإسلام في المجتمعات المعاصرة وجود نظري يعيش في محيط التفكر والرأي والقول وقلما يتجاوز ذلك إلى التطبيق العملي . ثم يضيف قائلاً : (ويمكن أن تتضح المفارقات في أفهام المسلمين المختلفة للإسلام ، وفي تطبيقهم غير الموحد لمبادئه وعبادته من جانب ، كما يتضح المجال العملي والنظري للإسلام سعة وضيقاً في حياة المجتمعات الإسلامية المعاصرة من جانب آخر ، يجب أن يكون هناك بحث خاص يمسح واقع هذه المجتمعات ، ويصنف هذا الواقع كما هو كتعبير وترجمة للإسلام المعاصر في حياة المسلمين ثم تُرَدّ به إلى الإسلام كما هو في كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة) (١٢)

- ومما يزيد في ضعف المسلمين اليوم هو ذلك النفوذ الإعلامي المتمثل في الماركسية الإلحادية من جهة والعلمانية الكافرة من جهة أخرى ، ويبدو ذلك جلياً في التوجيه الإعلامي والتعليم بوجه خاص وفي أفكارها ومبادئها التي تسربت إلى المجتمعات الإسلامية منذ النصف الثاني من هذا القرن ، وفي مقابل الوجود النظري للإسلام في المجتمعات الإسلامية المعاصرة وفي مقابل ضعف المؤسسات الإسلامية فيها ، توجد قوة فعلية للاتجاه العلماني ، في مقابل قوة أخرى للاتجاه الماركسي اللينيني وهي قوة الحكم وأجهزته ، والذين يتولون الحكم في الدرجة الأولى هم الفريق الأول والعلمانيون والذين تتلمذوا على التوجيه الغربي وليست لديهم أصالة في أنفسهم وإن ادّعوا ذلك في بعض الأحيان .
- تمكن العلمانيون من أجهزة الحكومة ومن القيادة السياسية بفعل المستعمرين وبالعرف الذي أصبح تقليداً فيما بعد . والشعوب الإسلامية اليوم بحاجة إلى وقت طويل لكي تسترد عافيتها وتكون قوّة في ذاتها تحرك الحكم وتوجهه لصالحها وحدها ، لأن الجوع والمرض والجهل قد مزّقها ، وغلبت على اتجاه أفرادها ، فهي تستسلم من أجل لقمة العيش وتستسلم بسبب المرض ، وتستسلم لأنها لا تقدر على الحكم الصحيح .
- الواجب على المسلمين لكي ينهضوا ويتقدموا هو أن يعدوا أنفسهم إعداداً جيداً ويستعدوا للجهاد بالمال والنفس الذي أمر الله به في كتابة ، وهو ما يسمونه اليوم بالتضحية **((وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت: ٦٩)**

المبحث الثالث ((الأخذ بأسباب النهوض والتقدم))

- لا يخفى على أحد بأن أوروبا وأمريكا تسيطران اليوم بقوتهما السياسية والعسكرية والعلمية والاقتصادية والتكنولوجية على العالم كله ، ومع ذلك فإنهم يفزعون من الدين كما يفزع الملدوغ من الحبل ، ولو كان بالنسبة إليه حبل النجاة .

  ولقد زعمت الجاهلية المعاصرة في أول أمرها –في عصر النهضة– أنها تستطيع أن تدير ظهرها للدين ثم تظل تمارس الحياة بصورة طبيعية لا يعتورها نقص ولا اختلال ، ولقد كانت ظروفها تؤدي بها إلى الانسلاخ من ذلك الدين الذي يعكر صفو الحياة ويعطل دفعتها ، وينشيء الجهالة ،ويحجرعلى الفكر ، ويحجب عن البشرية النور .
- حين بدأت أوروبا تنسلخ من دينها لم يكن في مقدورها أن تنسلخ دفعة واحدة من القيم التي كانت تصاحب ذلك الدين ، وربما لم يكن ذلك في نيتها في مبدأ الأمر ، فراح القوم يبحثون عن مصدر آخر للقيم التي لا يمكن أن تعيش بدونها البشرية .
- أثبتت التجربة العلمية أنه لا يوجد مصدر حقيقي للقيم غير الدين قالوا : (العقل) ، وقالوا : (الطبيعة) وقالوا : (النفس البشرية) ، وقالوا : (العلم) ، وقالوا : (الفلسفة) وقالوا كل ما يخطر ببالهم ، ثم خرجوا من ذلك كله بما وصلوا إليه آخر الأمر : (القلق والجنون والضياع والحيرة والأمراض النفسية والعصبية والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة والانحلال والمسخ الذي يشوه الفطرة والهبوط الخلقي والفكري والروحي في كل ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، على مستوى الأفراد والجماعات والشعوب والدول كلها على السواء .
- تحول الانسان في البلاد الأوروبية إلى آلة للإنتاج المادي في الصباح ، وإلى حيوان هائج في الليل يبحث عن المتاع الجنسي ، ويبحث عنه أحياناً في تبذّل يتعفف عنه بعض أنواع الحيوان .

وتلك نهاية طبيعية لبعد الناس عن الدين ، وهي تجربة مكررة في تاريخ البشرية وإن ظنت الجاهلية المعاصرة أنها تجربة رائدة تخوضها البشرية لأول مرة لأنهم في جهالتهم العلمية لا يقرأون التاريخ أو لا يحبون أن يأخذوا العبرة من التاريخ) (١٣)

س/ أين يذهب الإنسان حين يخرج من الدين ؟ هل يتحرر من القيود كما يزعم أولئك المتحررون ؟

جـ/ نعم إنه يتحرر من القيد الإنساني ليقع في قيود الحيوان ، الدين قيد لا شك في ذلك ، لأنه التزام بما أنزل الله ، قيد على شهوات النفس ، وقيد على أهواء الإنسان ، وكما قال الله تعالى : **((وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) (النازعات: ٤٠)** . ولكن الدين في الوقت ذاته يحرر الإنسان من ضغط الشهوات وثِقل الذل والخضوع للقوى القاهرة التي تقهر الإنسان وتذله وتستعبده بمثله من بشر يستعبدون بني البشر ، أو ضغوط مادية واقتصادية تسحق كرامة الإنسان .

والمجتمعات الإسلامية بفضل تديّنها وتمسكها بقيمها وأخلاقياتها نظيفة من هذه الأمراض النفسية والعصبية ومن هذه العقد والانحرافات والشذوذ الاجتماعي الذي يعيشه أبناء المجتمعات المتحضرة ، إلا أنه يلاحظ في السنوات الأخيرة بروز شيء من هذه المشاكل والأمراض النفسية والعصبية بسبب رقة في الدين وبعد عن التمسك بالأخلاق والفضائل . ونجد ذلك بل نلمسه بوضوح عند شباب هذه الأمة ومراهقيها دون الكهول والشيوخ ويرجع ذلك أيضاً إلى الشبيبة في المجتمعات الإسلامية بالأفكار والسموم المستوردة من الخارج عن بوساطة وسائل الإعلام بشتى أنواعها المقروءة والمسموعة والمرئية٠

وحين انتقل الناس في الجاهلية المعاصرة من قيد الدين وقعوا في عبوديات لا حدود لها ، سواء عبوديتهم للحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله ويتخذون من أنفسهم أرباباً يشرعون للناس ويخضعونهم لهم بالسلطان القاهر ، أو لشهواتهم التي لا يملكون الفكاك عنها ، أو لأعراف وقيم وموازين ما أنزل الله بها من سلطان ، كلها تهبط بالإنسان من مكانه الكريم الذي كرمه الله به يوم خلقه ، وتمرغه في الأوحال ،فهل هذه هي الكرامة التي يحققها الإنسان لنفسه حين يتمرد على الدين ويجري وراء العلمانية الضالة المضلة . فنحن نرى أن أوروبا ومن شاكلها من الأمم المتحضرة لا يمكن أن تستمر حياتهم على هذا المنهاج ، لأن أمراضها ستستمر وتتضاعف بسبب عدم تناولها للدواء الناجع ، إلا أنه من ناحية أخرى تصيبها السنّة الحتمية التي لا تتبدل ولا تختلف ولا يتغير مجراها على مرِّ العصور والأزمان والمتمثلة في قوله تعالى :**((فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ *فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)(الأنعام: ٤٤-٤٥)**٠ ولقد مضت السنة الربانية مع أوروبا في جاهليتها المعاصرة خطوة خطوة ، نسوا ما ذكروا ففتح الله عليهم أبواب كل شئ من قوة اقتصادية وعلمية وتكنولوجية وعسكرية وسياسية ... الخ . . ففرحوا بما أوتوا ، أي طغوا في الأرض بغير الحق ، ولم تبق إلا لحظة أخيرة حتى تتم سنة الله بتمامها وهي أخذهم بغتة إذا أصروا على ما هم فيه . قال تعالى :**((أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ *)أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ *أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ)(النحل: ٤٥-٤٧)** ٠ يقول (جون فوستردالاس) وزير خارجية أمريكا الأسبق في كتاب ((حرب أم سلام)) ((أن هناك شيئاً ما يسير بشكل خاطئ في أمتنا ، وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج ، وفي هذه الحالة النفسية)) ثم يضيف قائلاً : ((إن الأمر لا يتعلق بالماديات ، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوي فبدونه يكون ما لدينا قليلاً ، وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم ، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم ، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم ، أو القنابل مهما بلغت قوتها ، فمتى شعر الناس بالحاجة إلى الاعتماد على الأشياء المادية ،فإن النتائج السيئة تصبح أمراً حتمياً))(١٤)

((إن الحضارة الغربية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا . فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتها الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا))(١٥)

أنظر كيف أصبحت هذه الحضارة الغربية وذلك التقدم الصناعي والتكنولوجيا عبئاً ثقيلاً على الغربيين يودّون لو تحرروا من قيوده وأثقاله لأنهم جعلوا من هذه الحضارة جسداً بلا روح ولا طمأنينة ولا سعادة يحسونها كما يحسها المتدينون في المجتمعات الإسلامية ، فحينما تصبح الحياة خلواً من الدين ينحدر الناس نحو الهاوية والسقوط في مستنقع الرذيلة .

فعلى البشرية اليوم ، إن أرادت النجاة من الهاوية المحتومة أن تبحث عن الدين الحق ، الدين الذي يؤّمن العقيدة الصحيحة في الله تعالى، والمنهج الصالح للحياة ، الدين الذي لا يخلق فجوة مصطنعة بين الإيمان بالغيب والإيمان بالمحسوس ، بين الإيمان بالعقيدة والإيمان بالعلم ، بين نشاط الروح ونشاط الجسد بين الدنيا والآخرة . بين العمل والعبادة ، بين التقدم المادي والحضاري وبين التقدم الروحي والالتزام بالقيم الإنسانية والأخلاقية .

الدين الذي يقيم حضارة إنسانية متكاملة ومتوازنة ، لأنه يأخذ الإنسان كله ولا يهمل جانباً منه ، لا يهمل المشاعر الدينية الشفافة الرفيعة من أجل النظر العلمي والتجربة العلمية ، ولا يهمل النجاح في الأرض من أجل القيم الخلقية ولا يهمل القيم الخلقية من أجل النجاح في الأرض ، بل يوفق بين الجميع ويوجه الكل ويوظفه لخدمة الدين والدنيا معاً سوية جنباً إلى جنب لتحقيق السعادة في الدارين .

الدين الذي يؤمّن العدل السياسي والعدل الاجتماعي والعدل الاقتصادي ، كما يؤمّن في الوقت ذاته التجدد والنمو في الحياة البشرية ، ولن يكون هذا الدين إلا الإسلام ، فهو عند الله هو الدين المقرر للبشرية **(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ)(آل عمران: من الآية١٩)** وهو الذي تمت به نعمة الله على البشر ، واكتمل به شرع الله ومنهجه **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً)(المائدة: من الآية٣)**وهو الدين الذي يشهد واقعه وقت أن طبق في عالم الواقع – أنه أنشأ تلك الحضارة الإنسانية المتكاملة التي شملت كل جوانب الحياة وكل جوانب البشرية . والتي كانت للإنسانية كلها نوراً وهداية ، والتي استمدت منها أوروبا العلم والحضارة بعد احتكاكها بالمسلمين واقتباسهم منهم النظريات والاكتشافات العلمية الهائلة التي وظّفوها في صناعاتهم ومعاملهم .

وحين تعتنق أوروبا وأمريكا هذا الدين الحنيف فلن تحتاج أن تتخلى عن تقدمها العلمي والمادي والتكنولوجي ولا عن شيء من عبقريتها التنظيمية ، ولا عن شيء من عملها الدؤوب المتواصل في العمل والإنتاج ، إنما تحتاج فقط أن تقيم ذلك كله على قاعدته الصحيحة ، وهي الإيمان بالله وتطبيق منهجه في الأرض ، كما تحتاج أن تتخلى عن عبوديتها للمادة وعبوديتها للشهوات والمسلمون بطبيعة الحال يحملون المسؤولية الكبرى في هذا الشأن ، فهم الذين أخرجهم الله ليكونوا هداة البشرية في الحياة الدنيا ، والشاهدين عليها يوم **القيامة (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)(آل عمران: من الآية١١٠)** وقوله تعالى :**(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران:١٠٤)** وقوله تعالى : **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)(البقرة: من الآية١٤٣)** ،ولن يكون المسلمون شهداء على الناس يوم القيامة حتى يؤدوا الشهادة في الدنيا لهذا الدين بإقامته في الأرض كما أمر الله ، والدعوة إليه كما أمر الله ، فتقوم الحجة على الناس ، إن قبلوه فقد اهتدوا ، وإن أعرضوا فقد أعذرت الأمة الإسلامية إلى ربها ، ويوم القيامة يشهدون على الناس عند ربهم وأمام خالقهم : لقد أقمنا الدين في الأرض كما أمرتنا ، ودعونا الناس إليه كما أمرتنا ، فأعرضوا فحق عليهم الجزاء .

والمسلمون اليوم في حضيض من الذلة والهوان والضعف والتخلف لم يهبطوا إلى مثله في تاريخهم كله بسبب تخلفهم عن هذا الدين ، وإضاعة عقائده وأحكامه والغفلة عنه والتفريط فيه . ولكنهم يحملون مسئوليتهم نحو أنفسهم ، ونحو البشرية ، ولا يعفيهم منها كل ما وقعوا فيه من الذل والهوان ، بل إن ذلك يضاعف مسئوليتهم ، لأنهم ما وقعوا فيه إلا لتفريطهم في هذا الدين الذي قال الله **فيه (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ*وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)(الزخرف:٤٣-٤٤)**، فماذا يقول المسلمون لربهم غداً حين يسألهم ؟ وأي وزر يحملونه إذا احتاجت البشرية إليهم غداً فلم تجدهم في المكان الذي ينبغي أن يكونوا فيه ، مكان الأمة الهادية المهدية التي تحمل الهدى الرباني وتقدمه للناس واضحاً جلياً ؟ ونحن نرى اليوم بواكير هذا الهدى الرباني في حركات النهضة الإسلامية التي تنبعث من هنا وهناك تسعى إلى تحقيق الإسلام على أرض الواقع وتجاهد في سبيل الله لا تخاف لومة لائم ، وتتعرض لأبشع ألوان الأذى والتعذيب الوحشي صابرة صامدة محتسبة ذلك كله في جنب الله وفي سبيله عز وجل ولإعلاء كلمته في الأرض .

كما تبدو تباشير هذه النهضة الإسلامية فيمن يدخلون في هذا الدين الحنيف في أوروبا وأمريكا وأفريقيا وغيرها من دول العالم بعشرات الألوف وهم يتزايدون على الدوام .

يقول المؤرخ ((توينبي)) في إحدى محاضراته (صحيح أن الوحدة الإسلامية نائمة ، ولكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ ، ثم يفيق : وهناك مناسبتان تاريخيتان كان الإسلام فيهما رمز سمو المجتمع الشرقي في انتصاره على الدخيل الغربي :-

١- ففي عهد الخلفاء الراشدين حرر الإسلام سوريا ومصر من السيطرة اليونانية التي أثقلت كاهلها مدة ألف عام تقريباً .

٢- وفي عهد نور الدين وصلاح الدين والمماليك احتفظ الإسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول .

فإذا سبب الوضع الدولي الآن حرباً عنصرية ، فيمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخي مرة أخرى ، وأرجو ألا يتحقق ذلك))(١٦) ٠

أما نحن المسلمون فنرجو أن يتحقق ذلك ، لا على أساس حرب عنصرية كما يقول توبيني ، بل على أساس من الصراع الصحيح بين الحق والباطل ، وتمشياً مع سنة الله في خلقه من دفع الناس بعضهم ببعض . قال تعالى **(وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)(الحج:من الآية ٤٠)٠**

نرجو أن يتحقق ذلك لا بوصفنا مسلمين فحسب ، بل انطلاقاً من كل الحب الذي نكنه للبشرية جمعاء ، لكي تتلمس وتهتدي إلى النور .

إسهامات بعض المفكرين المسلمين

من أبرز المفكرين الإسلاميين في القرن التاسع عشر الميلادي شخصيتان هما :-

١- المفكر الكبير السيد / جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ) (١٨٣٨ - ١٨٩٧م) .

٢- الأستاذ الإمام الشيخ / محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ) (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) .

السيد / جمال الدين الأفغاني :-

اتخذ السيد جمال الدين الأفغاني من تجديد الإسلام بعقل الفيلسوف أداة لتجديد حياة الشرق الإسلامي ، واتخذ من الثورة سبيلاً تصل الجماهير عن طريقه إلى مواقع السلطة والسلطان ، كي تملك بيدها مصائرها وتحرر طاقاتها ، واستهدف من وراء كل ذلك بعث روح المقاومة في الشرق كي يتصدى شعوبه للاستعمار الأوروبي الذي غزا العرب المسلمين في عقر دارهم ، واستمر بالزحف على بلادهم وشعوبهم وقيمهم وحضارتهم في ذلك الحين . لقد كان الأفغاني ثورياً – إن صح التعبير – يريد تنفيذ الأهداف التي تسعى إليها الأمة الإسلامية بالقوة ، وفي مقدمة هذه الأهداف التصدّي للاستعمار والزحف الأوروبي ومقاومته بكل الوسائل المتاحة ولو أدى

ذلك إلى الثورة على الحكومات العربية والإسلامية إذا ما حاولت هذه الحكومات إعاقة تحقيق أهداف الأمة والوقوف في طريقها، لقد وعى هذا المفكر الكبير التراث الإسلامي الفلسفي ومنطقه من التطور والتجديد .
يقول الإمام الشيخ محمد عبده في حديثه عن حياته :- إن والدي أعطاني حياة يشاركني فيها أخواني (علي) (ومحروس) والسيد جمال الدين الأفغاني أعطاني حياة أشارك بها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين)(١٧)٠
والسيد جمال الدين الأفغاني هو أستاذ الشيخ محمد عبده ، فقد تتلمذ الأخير على يديه عندما كان بمصر قبل نفي الأفغاني عنها إلى تركيا . أراد الأفغاني جرّ تلميذه الشيخ محمد عبده من درب التصوّف والتنسّك الذي بدأ به حياته العلمية والفكرية إلى ساحة الفلسفة والحكمة والعمل السياسي في سبيل نصرة الأمة على أعدائها .

وفي إحدى زيارات الأفغاني لمصر سنة (١٨٧١م) اتصل به الشيخ محمد عبده ولازم مجلسه وكتب مقدمة (الرسالة) الفلسفية التي أملاها الأفغاني سنة (١٨٧٢م) وهذه المقدمة تعد أول آثار محمد عبده الفكرية ، ثم أنشأ الأفغاني التنظيمات السياسية السرية بمصر ، واستمر يمارس العمل السياسي حتى نفي من مصر سنة ١٨٧٩م ، وبعدها رحل إلى فرنسا . وأقام في باريس وعمل في إخراج جريدة سماها (العروة الوثقى)لسان حال جمعية العروة الوثقى السرية التي أقامها في بلاد الشرق ، وخاصة في مصر والهند وصدرت منها أعداد كثيرة .
كانت نهضة الشرق المسلم وتجديد حياته وتحرير طاقته الشغل الشاغل لهذا المفكر الجليل ، لذا نراه يطرح أفكاره ومبادئه أمام الأمة ملخصة بما يأتي :

١- التحرر الفكري من الجمود والتقليد والرجعية الدينية / بسلوك طريق العقل لتجديد الدين ، وإحياء الدراسات الفلسفية الممزوجة بالإلهيات ، وإحداث ثورة فكرية نغربل بها موروثاتنا الدينية عن الأولين وخصوصاً أهل قرون التخلف والركاكة والإنحطاط .
٢- التحرر السياسي من نفوذ الاستعمار الغربي الزاحف على المنطقة والتصدي له بالنهضة الحضارية لمغالبة وتجسيد الفكر الإسلامي الثوري في مؤسسات دستورية ونيابية حديثة ، وتقييد سلطان الحكومات بالدساتير والقوانين واطلاق طاقات الجماهير الواسعة في الخلق والإبداع والبناء وكل ذلك بواسطة (الثورة) على المعوقات التي تعترض الجماهير في هذا الطريق (١٨) . فأنت ترى كيف أن الأفغاني رحمه الله يرى الثورة هي الوسيلة الاجدى والأفعل في بلوغ الغاية التي حددها ، على العكس من منهج تلميذه الشيخ محمد عبده الذي كان إصلاحياً يرى أن التدرج في الإصلاح هو الطريق الأقوم والأضمن في تحقيق هذه الغاية ، فهو يتفق مع استاذه الأفغاني في الغاية والأهداف المطروحة ، لكنه يختلف معه في الوسيلة التي يجب اتخاذها لتحقيق تلك الأهداف والغايات كما سترى ذلك عند الكلام عن الإمام الشيخ محمد عبده .

❖ الإمام الشيخ محمد عبده

ولد الشيخ / (محمد عبده حسن خير الله) في قرية (محلة نصر) من أعمال مديرية محافظة البحيرة المصرية سنة ١٨٤٩م - ١٢٦٦هـ في أسرة تعتز بوطنيتها ومقاومتها للاحتلال .
تلقى تعليمه الأولي للقراءة والكتابة ، وحفظ القرآن بالقرية وبدأ ذلك وهو في السابعة من عمره ، ثم ذهب إلى (الجامع الأحمدي) بطنطا ليحضر هناك دروس تجويد القرآن الكريم . ثم انتقل إلى الجامع الأزهر وتلقى العلوم الشرعية على يد المشايخ ثم انتمى إلى التيار الصوفي وظل على هذه الحال حتى التقى بالسيد جمال الدين الأفغاني الذي نقله من مسلك الصوفية إلى الفلسفة والحكمة كما مر بنا قبل قليل٠

نال الشهادة العالمية من الأزهر وواصل بعد تخرجه تدريس كتب المنطق والكلام المشوب بالفلسفة ، وكان قبل تخرجه يعيد على طلبة الأزهر إلقاء دروس الأفغاني التي كان يلقيها في منزله ، والكتب التي يشرحها ويعلق عليها ، مثل كتاب (إيساغوجي) في المنطق ، وشرح كتاب (العقائد النفسية للتفتازاني) مع حواشيه ، وشرح كتاب (التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية) للوزير الفرنسي (فرانو جيزو) ، وكتاب (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه .

اشترك مع استاذه الأفغاني في التنظيمات السياسية السرية التي أنشأها الأفغاني بمصر . ومن أبرز أعماله الفكرية في هذه المرحلة من حياته ، بعد دروسه وتدريسه ، مقالاته في الصحف وهي (تقريظ جريدة الاهرام) و (الكتابة والقلم) و (العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية) ثم عين محرراً ثالثاً في جريدة (الوقائع المصرية) ثم محرراً أولاً للصحيفة الرسمية المصرية ، وفي ١٨ مارس سنة ١٨٨١م أُنشئ المجلس الأعلى للمعارف العمومية وعُين الإمام عضواً فيه .

وفي هذه الفترة أُبعد عن الاشتغال بالتدريس وعمل بالصحافة السياسية وساهم في أنشطة صحافية وسياسية كثيرة ، وله مقالات ودوريات أكثر من أن تحصى . نُفي إلى بيروت سنة ١٨٨٢م فأقام نحو عام ، حتى دعاه أستاذه الأفغاني إلى باريس في أواخر سنة ١٨٨٢م وهناك تعاونا على إصدار مجلة العروة الوثقى كما أسلفنا .

زار لندن داعياً لوجوب جلاء الانجليز عن مصر ، والتقى بوزير الحربية الانجليزي ووجوه البرلمان والصحافة والرأي العام . ثم عاد إلى مصر وساهم في ترجمة الكثير من الكتب في المنطق وعلم الكلام والفلسفة وشرح كتاب (نهج البلاغة) و (ديوان الحماسة) و (إشارات ابن سينا) وألّف (رسالة التوحيد) ثم بدأ بتفسير القرآن الكريم على نفس المنهج الذي سار عليه أستاذه الأفغاني بمنهج عقلي حديث ، واجتذب تدريسه وتفسيره للقرآن الحركة الثقافية والفكرية حتى كان بعض المستنيرين من المسيحيين يتجمعون على باب المسجد لسماعه ومتابعة حديثه .

وفي هذه الفترة دارت مراسلات بينه وبين الأفغاني في الاستانة بعد أن استقر بها سنة ١٨٩٢م ، إلا أن خلافاً بدأ ينشب بينه وبين الأفغاني حول الطريقة الإصلاحية التي نهجها الإمام محمد عبده مع الإنكليز والسياسيين في مصر فعنّفه الأفغاني وحذّره من الجبن والخوف وحثّه على مقاومة الأعداء والمضي في طريق المجابهة والتحدي . وفي سنة ١٨٩٩م عُين في منصب مفتي الديار المصرية .

ومن أبرز أعماله الفكرية في هذه الفترة : فتاويه وأحاديثه للصحف والمجلات وتحقيق وشرح بعض الكتب البلاغية (كدلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) للجرجاني و (الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية) وكان رحمه الله كما يصفه الشيخ رشيد رضا (ربع القامة ، أسمر اللون ، مع وضاءة ، عظيم الهامة في اعتدال ، عالي الجبهة ، كبير الدماغ ، أسود العينين براقهما كأنهما مصباحان أو شرارتان ، بارز الوجنتين ، واسع الفم ، منظم الأسنان ، جهوري الصوت) (١٩) .

توفي الأستاذ الإمام محمد عبده في ١١ يوليو سنة ١٩٠٥م بالاسكندرية عن عمر يناهز سبعاً وخمسين عاماً وعن حياة فكرية خصبة ، وجهود عظيمة قي التربية والإصلاح قلما تتأتى لرجل آخر ، ومواقف تجسد عظمة هذا الإمام المجتهد الكبير الذي وقف كالطود الشامخ يقارع الرياح العاتية .

لقد كان رحمة الله عليه عقلاً من أكبر عقول الشرق والعروبة والإسلام في العصر الحديث ، والموت إنما يصيب الأجسام ، أما هذه العقول الفعالة فإنها لا تموت .

الفوارق الجوهرية بين المفكرين الكبيرين الأفغاني ومحمد عبده :-

سبق وقلنا بأن الشيخ محمد عبده تتلمذ على يد الأستاذ جمال الدين الأفغاني ، وقام بنقل أفكار أستاذه إلى طلبة العلم في الأزهر والراغبين في هذا اللون الفكري الجديد على الأمة العربية والإسلامية في ذلك الوقت . وفي

التدرب على صناعة الكتابة ، منشئاً تارة ومضيفاً لأفكار أستاذه في أغلب الأحيان ، هذا من الناحية الفكرية .

أما من الناحية السياسية ، فلقد تبع أستاذه كذلك فيما اتخذ من مواقف في هذا الميدان ، فساهم معه في تكوين الحزب الوطني الحر ، وسعى سعي أستاذه ووقف مواقفه السياسية فكراً وعملاً في بداية الأمر ، إلا أنه وبعد نفي الأفغاني من مصر برزت ملامح موقف الشيخ محمد عبده المستقلة ، وتميزت شخصيته الفكرية ومواقفه العملية عن شخصية الأفغاني والتي تتلخص فيما يلي :-

١- يلجأ الأفغاني للثورة على المحتلين ومن يساندهم من الحكومات العربية في مصر وغيرها من بلاد المسلمين بينما نهج الإمام محمد عبده نهجاً إصلاحياً تربوياً في سبيل تحقيق الأهداف ، ويتخذ من التربية المستندة إلى الدين بعد تجديده وسيلة لتحقيق الغاية المنشودة .

٢- يدعو الأفغاني الجماهير إلى الإنخراط في العمل الثوري وكان يثق في الجماهير والعامة ويعتمد عليها لأنها صاحبة مصلحة أكيدة في الثورة . أما محمد عبده فبسبب منطلقه الإصلاحي ، فهو قليل الثقة بهذه الجماهير ، بل أنه قد أسقط من حساباته هذه الجماهير وعوام الناس في العمل لبلوغ هذه الغايات .

٣- يقيم الأفغاني دعوته على دعامتين :

أ- دروسه التي تحرر العقل

ب- تنظيماته السياسية الثورية السرية التي تثير الناس وتعبئهم كي يحولوا قيم التحرر الفكري ومبادئ السياسة إلى طاقة مادية فاعلة ونامية .

بينما محمد عبده كان مهتماً بالتدريس فقط ولم يتحول إلى الصحافة إلا مرغماً في عام ١٨٨٠م ، بل لم يبتعد عن التفرغ للتدريس إلا مرغماً كذلك .

٤- يدعو الأفغاني الشعب إلى انتزاع حريته واستقلاله بالثورة ويحدد أن طريقهما لابد وأن يكون مخضباً بالدماء ، لأن الحرية والاستقلال لا يوهبان من قبل الملك أو الحاكم بل هما نعمتان تحصل عليهما الأمم بالقوة والاقتدار.

بينما نجد محمد عبده ينفر من هذا الطريق الثوري ، ويريد تغييراً وإصلاحاً دون قطرة واحدة من الدماء ، ودون أن تتكدر النفوس أو تدمع العيون ، وهكذا تتحد الغايات النظرية لكلا المفكرين المجددين ، بينما تختلف السبل الموصلة إلى هذه الغايات ، وخاصة سبل الوصول إلى التحرير السياسي والوطن لشعوب الشرق ، فرآها الأفغاني (الثورة) ،ورآها محمد عبده (التربية والتعليم) .

<u>التجديد في الحضارة :</u>

من الأمور المنطقية في قضية تطور الحضارات أن الحضارة لا يمكن أن تتجدد إلا في إطار منطلقاتها وخصائصها الذاتية – أي في داخل مذهبيتها الحضارية وإلا فلم يكن هنالك تجديد في تلك الحضارة بل تحرير وتبديل باتجاه حضارة أخرى وهذا لا يعد تجديداً بالمعنى الدقيق في عالم الإنسان ، ومن خلال دراسات طبية حيوية تأكد لنا أن الإنسان في تجدد مستمر في ضوء قانون البناء والهدم الذي يعتري الخلايا الجسمية ، حتى أنه بعد عقد من السنين تتجدد خلاياه ولكنه مع ذلك يظل محتفظاً بماهيته وخصائصه الذاتية التي تميزه عن غيره – وهذا التجديد ضمن تطور طبيعي في خلايا ذاتية دون تدخل خارجي في طبيعة تركيب الجسم ، كذلك الحضارة إذا أريد لها أن تحتفظ بشخصيتها وملامحها العامة وخصوصيتها كي لا يصيبها الفصام الحاد بين ماضيها وحاضرها .

ومن هنا فلابد للحضارة التي تريد أن تحتفظ بهويتها وتستقل بشخصيتها أن تكون لها مذهبية في الحياة ، أو كما يسميها الدكتور (إلبرت اشفيتر) بـ (النظرية الكونية) للحضارة التي ينبعث منها نظام أخلاقي عام يعطي الإنسان معناه . (٢٠)

- ولكي نعرف كيف تتجدد المذهبية الحضارية : يجب أن نقف أولاً على كيفية تحديد نظام الثقافات عن هذا يقول أحد المتخصصين في علم تطور الحضارات وهو (كو سرورق) يتجدد نظام كل ثقافة تبعاً للتصور الذي تكونه لنفسها عن الله والإنسان والعالم والعلاقة التي تقيمها بين هذه المستويات الثلاثة من نظام الواقع . (٢١)

لنأت إلى المذهبية الإسلامية ، كي نرى كيفية تحديدها لهذا النظام الذي يشكل الحجر الأساسي في بناء حضارتها ولا سيما الثقافة التي تقودها حتى تصل إلى الفروق الجوهرية بينها وبين أنظمة الثقافات الأخرى . ونحن هنا نعرض الخطوط الرئيسية للمذهبية الإسلامية بإيجاز شديد ونترك للقارئ الكريم عرض تفاصيلها وأدلتها الكثيرة من القرآن الكريم والكتب المختصة في هذا المجال . (٢٢)

الخطوط الرئيسية للمذهبية الإسلامية : –

(أ) في الكون : القرآن الكريم يتحدث عن الكون المادي بشموله وتنوعه وحركته الدائبة وتكاثره المستمر وانتظامه وترابط أجزائه وكونه موضوعاً للتفكر والتأمل والاستنباط والانتفاع ، والمادة الكونية ليست شراً في حد ذاتها ، إذ هي مخلوقة لغايات حكيمة ، منها أداء الإنسان لدوره الحضاري فيها .

كما يدعو القرآن إلى استعمال العقل في الوصول إلى الحقائق والقوانين المودعة في الكون ، ويتم ذلك عن طريق فهم الكون فهماً عقلانياً من حيث هو مجال لفاعلية العقل ، تحليلاً وتركيباً وتغييراً ، وهذه العقلانية ليست ثابتة ولا تأمّلية بل هي متغيرة وتجريبية ، لأنها تتعامل مع التركيب المادي للكون القائم على أساس التقدير الفائق والتناسق العجيب والحسابات الدقيقة .

إن هذا النظام البديع المقدر بعناية فائقة لا يمكن – وحسب منطق العقل والمنهج العلمي – أن ينتج عن الصدفة ، لاستحالة ذلك رياضياً ، ولا يمكن أن تقول : أنه نتج من التولد الذاتي لأن الشئ محال عليه أن يكون علة ابتداءً ومعلولاً في عين الوقت لنفسه .

إذن فلا مناص عقلاً من القول بالخالق ، لأن الأسباب ليست طبيعية أزلية إلى مالا نهاية ، وإنما هي متسلسلة متلاحقة ، وهي جزء من الطبيعة ذاتها ، فلابد من إرجاعها إلى الله رب العالمين .

(ب) الله : الله سبحانه وتعالى خالق الكون ومبدع الوجود ، وهو الفاعل القادر المدبر المريد ، وهو خالق سلسلة الأسباب ، فلا تناقض إذن في مذهبية الإسلام بين الإيمان بوجود الخالق والاعتقاد بعليّة الوجود . والله تعالى له صفات الكمال كلها ، والتي تتجلى في أسمائه الحسنى ، وهذه الصفات واضحة مفهومة قاطعة ، ومنطبقة على الوجود المادي كله انطباقاً كاملاً .

والله غنيّ كامل ، والمخلوقات فقيرة ناقصة محتاجة إليه ، إذن فهنالك فارق أساسي بين الخالق والمخلوق ، ومن هنا فإن نظريات وحدة الوجود ، والاتحاد والحلول التي دخلت على المجتمع الإسلامي بتأثير الثقافات الأجنبية ، لا علاقة لها بأصول المذهبية الإسلامية التي قررها القرآن الكريم .

ومن صفات هذا الخالق العظيم : الوحدانية التي تثبتها وحدة القانون الكوني ، ويثبتها العقل المنطقي البرهاني الذي يوجب حصول الفساد في الوجود في حالة وجود إلهين أو أكثر ، لأن الله تعالى الموصوف بالكمال لا يحتاج إلى شريك في حكمه ، إذ لو وجد هذا الشريك لتداخلت الإرادتان ، ودخل الفساد في الكون ، وعند التداخل إذا ثبت العجز من الطرفين فأيّ منهما ليس إلهاً ، لأن الإله لا يكون عاجزاً ، والمتغلب هو الإله ، كما أن افتراض وجود إلهين متطابقين . وهمّ يخالف المنطق البرهاني ، لأن الإثنينية تستدعي المغايرة ، ثم إن الإله قائم بذاته غير مفتقر إلى سواه ، فلو افترضنا وجود إلهين متشابهين متماثلين ، لأمكن عقلاً الاستغناء عن أي منهما ، فأي منهما عند ذلك لا يكون إلهاً لأن احتياجه وقتئذ جائز عقلاً .

(جـ) النبوة : علاقة هذا الخالق الأحد بمخلوقاته علاقة موجبة وليست سالبة ، إذ أن عنايته موصولة بكل من ذرّات الوجود المادي في كل آن .

ومن هنا فإنه لم يشأ أن يترك أفضل مخلوقاته من دون رعاية أو لطف أو عناية .

أعطى الإنسان العقل لكي يدبّر أمره ويبحث عن الحقائق التي تتصل بكشف قوانين العالم المادي (عالم الشهادة) وأرسل إليه الأنبياء والمرسلين ليوصلوه بعالم ما وراء المادة من الأمور الغيبية التي تتصل بوجود الخالق وصفاته وعالم الملائكة والجن واليوم الآخر والمقاييس الجوهرية للخير والشر تأييداً لإدراك العقل إن أصاب أو تصحيحاً لانحرافه إن انحرف .

إن المجالات الغيبية لا يدرك العقل تفاصيلها ، لحركته في مجاله المحدود من التأمل والملاحظة والتجربة .

ضرورة النبوة يؤيدها العقل ، وهذا واقع استقرائي في جميع المجتمعات الإنسانية ، لأن البشرية عبر تاريخها الطويل تّجمِع على هؤلاء الأنبياء الذين كانوا قِمَماً عالية ، ومنار هدي وإشعاع أملٍ لبني البشر ، دعوهم إلى الله الخالق وحسّنوا الصلة بينه وبينهم .

والأنبياء كانوا بشراً ولم يكونوا آلهة من الآلهة ولا أبناء الآلهة ، وليست لهم آية صفة من صفات الألوهية ووصفهم القرآن الكريم بأنهم جميعاً يتصفون بالعبودية الخالصة لله رب العالمين ومع ذلك فإنهم في المرتبة العليا من الكمال ، فهم منزهون عن صفات النقص والآثام الطاعنة في أصل نبوتهم ، معصومون في تبليغ الرسالات الإلهية إلى من كلفوا بإبلاغ الرسالة إليهم .

إنهم يُوحى إليهم بطريقة لا تشبه الإتصال الحسي ولا المدركات العقلية . وهذا طريق يقيني في المعرفة ، فوق مرتبة الحس والعقل والمذاهب الروحية الذاتية للإنسان حتى بعد بلوغه قمة الولاية .

(د) ختم النبوة : تطورت أوضاع البشرية عبر التاريخ من الحياة البدائية إلى الحضارة وأرسل الله تعالى إليها الأنبياء والمرسلين متتابعين ، يدعونها إلى التوحيد والعلاقات الإنسانية الصحيحة الخيّرة ، وتثبيت قيم الحق والخير والعدل .

لقد مرت البشرية بتجارب قاسية مريرة ، ونمت وتغيرت حياتها ، وترقّت في مدارج الرقي في العلوم والفنون والآداب وتنظيم الحياة ، فشارفت حياة الرشد ، وغدت مستعدة لتلقي الوحي الخاتم الذي وضع ثقته في عقل الإنسان وقواه ، بعد أن أعطاه كليات الوجود في العقائد والمُثل وأصول الشريعة ومقاصد الحياة وبعض الأحكام الضرورية التي تتصل بتثبيت حقيقة إنسانيتها كي تستظل بها إلى يوم الدين ، شاقة طريق التغيير والبناء والحضارة في ضوء وهداية الوحي الإلهي الأخير الذي ختم به وحي الأنبياء ورسالاتهم .

وقد أودع الله عز وجل في هذا الإنسان عقلاً كريماً ميّزه به على سائر مخلوقاته الأخرى ، كما أنعم عليه بالجانب الروحي والقدرة على السموّ والارتقاء .

هذه الميزات الخلقية والروحية والعقلية جعلت من الإنسان كائناً عظيماً مسئولاً ومؤهلاً لتحمل الأمانة الكبرى ، وهي تحقيق خلافة الله في الأرض بإنشاء الحضارة عليها وتعميرها .

والإنسان الكامل السويّ هو الذي يوازن في كيانه بين جوانبه الحيوانية والعقلية والروحية بحيث لا يطغى جانب على الأخر ، حتى يحصل الإتزان المطلوب في مسيرته لأداء الأمانة التي كُلّف بها ، حتى لا يختلّ واجبه ولا ينحرف .

وهذه الجوانب لها استعداد للرقي الدائم إذا ما وجهت توجيهاً شاملاً يأخذ بعضها بركاب بعض ، فالحيوانية يوجهها الإدراك ويضبطها الشعور ، وانحراف العقل تضبطه يقظة الروح والوجدان الذي يربيه الوحي الإلهي فيصل إلى حالة التقوى .

ومن أجل أن يستطيع الإنسان القيام بالأمانة الكبرى ، سخر الله له الكون وقوانينه لكي يستثمرها وينتفع بها في إقامة الحياة المتحضرة ، ويتحرك في ظل منهج علمي عقلي واضح دعاه خالقه إلى النظر والتفكير كي يصل

عن طريق المشاهدة والملاحظة والاستقراء والاستنباط إلى الحقائق والقوانين التي عليه أن يستغلها لإحداث التغيير المطلوب المستمر في الحياة الإنسانية والمجال الكوني .

إنه يستطيع القيام بهذا العمل الحضاري على الأرض ، لأنه من اختصاص عقله وطاقاته التي زوده بها خالقه عز وجل ، ولكن في ضوء الوحي الإلهي الذي وضع الحقائق الكلية عن الوجود أمامه .

إن الإسلام لا يوقف الإنسان عند حدود الأرض والكون الضيقة ، لأن الوقوف في هذا النطاق الضيق من شأن الحيوانات ، بل يدعوه إلى أن يتخذ من دلائل الأنفس والأفاق طريقاً إلى الخالق العظيم والمنعم الكريم ، كي يتصل به ويعبده ولا يعبد سواه ، وفي عبادته له لا لغيره السعادة الكبرى ، لأنه عند ذلك ينظر إلى الناس جميعاً ويدعوهم عيال الله وهو من بينهم عبد الله ، فيبني صلته بهم على أمتن الروابط وأعلاها وأقومها ، وبذلك يعم الخير المجتمع الإنساني .

إن العبودية لله تعالى تعني شعور الإنسان بعظمة الخالق ونعمه التي لا تحصى على الإنسان وانتظاره للمزيد من رحمته والتوكل الكامل عليه مع اتخاذ الأسباب ، وشعوره بمسئوليته الكاملة في أداء دوره في الحياة .

ومن هنا ينبعث أساس النظام الأخلاقي في الإسلام الذي يضبط سلوك الفرد وسلوك الجماعة .

ولما كان الإنسان مكلفاً خلق الله فيه قدرة الاختيار كي يحقق مسئوليته في الاختيار ، وهذا الاختيار هو ضمن المشيئة الإلهية الكونية لأنه محاط بنظام كوني مقدر لله سبحانه وتعالى .

❖ تقويم المذهبية الإسلامية :

ليس لدينا مذهبية حضارية وصلت إلينا قديماً أو حديثاً مبنية على عقيدة التوحيد غير مذهبية الإسلام الحضارية ، فحضارة الصين القديمة والهند والفرس واليونان والرومان وحضارة وادي الرافدين ووادي النيل والعرب القديمة في اليمن وغيرها ، قامت كلها على أساس الشرك في صورة من الصور ، الأمر الذي صرف تلك الحضارات عن مسارها الصحيح . (٢٣)

إن مذهبية الإسلام لا تضع النبوة مكان العقل وقواه في اكتشاف عالم المادة وتسخيرها للوصول إلى بناء الحركة الحضارية ، وإنما تضع أمام الإنسان مجالاً إضافياً لا يمكن للعقل أن يلجه حتى يستكمل الإنسان معرفته الكونية ويتوجه إلى خالقه بالطاعة والعبادة الخالصة ، فلا يتحول إلى عبادة الأنداد التي تستعبده وتسحقه وتسلب آدميته تحت عجلة الطغيان والإستلاب .

وأما في العالم الآخر فإن مذهبية الإسلام وضعت الإنسان أمام مصيره المحتوم وهو اليوم الآخر ، حيث يقوم الناس جميعاً لرب العالمين ، كي يواجهوا حسابهم مع خالقهم ، ليعاقب المسيء على إساءته ويجزي المحسن على إحسانه تطبيقاً لعدله المطلق في الكون ووصولاً إلى تحقيق الكمال القِيَمي في الوجود ، وإلا فإذا لم يحصل الكمال في ذلك اليوم ، فمتى سيحصل ؟

ومن هنا فإن الاعتقاد الحق باليوم الآخر سيؤدي إلى قيام أفضل نظام أخلاقي في المجتمع ، يضبط حركة الإنسان ويهذب صراعات حياته ، فيقف أمام جموح نفسه ، وانحراف قلبه ، ويجنب العقل الإنساني الاصطدام بعقبات الطريق ، لكي يسلك سبيل المحجة البيضاء ، ومن يستقرئ حياة الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم ، ولا سيما سيدهم وخاتمهم محمداً عليه الصلاة والسلام وحوارييهم وصحابتهم وتابعيهم من عباد الله الصالحين والربانيين والعلماء الفاضلين والمؤمنين الصادقين عبر المجتمعات الإنسانية المتتابعة حتى يومنا هذا ، سيجد أنهم في سلوكهم وتعاملهم الإنساني الرفيع خير شهود على ذلك النظام الأخلاقي الروحي العالي الذي يضع فارقاً بين عالم الإنسان المنضبط وعالم الحيوان الغريزي غير المنضبط .

إذن فالباحث المصنف الذي يقوم بمقارنة دقيقة شاملة في المذهبية بين الإسلام وغيره من الملل والنحل والأديان والأفكار القديمة والحديثة ، سيجد نفسه – إن كان خالياً من الهوى طالباً للحق في ذاته دون اتباع عاطفة هوجاء أو جمود عقائدي – أعمى أمام الحقيقة الدامغة الضخمة في هذا العالم وهو أنه (لا توجد

مذهبية شاملة متكاملة روحانية عقلانية واقعية إنسانية متكاملة متوازنة كمذهبية الإسلام في الكون والخالق والعالم والإنسان) . (٢٤)

المبحث الرابع/ التجديد في آلية العملالتنبيه إلى الأخطار المحدقة بالأمة : –

إن التجديد في آلية العمل لتطوير الفكر الإسلامي ، لا يمكن أن يكون تجديداً طبيعياً إلا إذا انطلق من داخل الأمة الإسلامية إذا أردنا أن تحتفظ أمتنا بعقيدتها الإلهية وشريعتها السمحاء التي تسع الحياة كلها في كل عصر بأصولها وقواعدها المرنة ومقاصدها التي جاءت لتحقيق مصالح الناس ، ونظامها الأخلاقي الذي يعبر عن جوهر وأصالة الإنسان وينسجم مع مساراته الذاتية في مواجهة العالم . (٢٥)

وأولئك الذين يدعون إلى تجديد حياتنا داخل إطار الحضارة الغربية ينسون أو يتناسون أنهم سيضعون الأمة – وقد وضعوها فعلاً – على خط حضارة أخرى تتناقض مع الحضارة الإسلامية في القضايا الخطيرة الآتية :

١ – إن الحضارة الغربية تستمد مصادرها من الحضارة اليونانية الوثنية والرومانية التي تمجد القوة التي لا تضبطها أية قيمة سامية ، وهي في عقيدتها التي تحرك الإنسان الأوروبي في أعماقه صليبية تعتمد على كنيسة حرفت الوحي الإلهي وحولته إلى فكر ديني بشري أكثر من خمسة عشر قرناً ، ثم انتهت هذه الحضارة إلى عقلانية مادية كفرت بالله وبالوحي الإلهي والنظام الكوني الأخلاقي المنبعث فيه .

وفي سبيل التمكين لهذه العقلانية المادية الصرفة تبنى التطور الفكري نظرية الأصل الحيواني للإنسان والتي تأثرت بها جميع الاتجاهات الفلسفية المادية الحديثة في الغرب والتي عالجت الإنسان من حيث هو حيوان في مجالات الحياة كافة ، والتي كانت نتيجتها الحاسمة ظهور الإنسان الأوروبي الحديث وهو يحمل انحرافات تاريخ الغرب كله .

٢ – من صليبية حاقدة كسلوك يومي له جذوره في أعماق تاريخه .

٣ – ومن تعصب عرقي متعال تجاه الحضارات والشعوب الأخرى .

٤ – ومن قلق يمزّق كيانه ، لأنه فصم جوهره وتكوينه وفرّقه أشلاء مبعثرة .

٥ – ومن حيوانية ساقطة همها المنفعة العاجلة ، ولو كان على حساب الجميع .

٦ – ومن إعلام ضخم كاذب شوّه أمام الإنسان وحقائق الوجود والقيم ، ومهمة الإنسان في هذه الأرض .

نحن هنا لا نريد أن نحكم على الحضارة الغربية الحديثة بالسلبية الكاملة ، بل نريد أن نؤكد أنها لا تملك نظرية في الكون متكاملة ، وأن الفلسفات المادية التي قادت مؤسساتها في القرون الأخيرة حطمت أبواب المعرفة الروحية والعقلية والأخلاقية ، وشككت فيها الأجيال المتتابعة ، ولكنها لم تستطع أن تبني مكانها شيئاً .

فكيف يمكننا بعد ذلك أن نقتنع بصدور التجديد من منطلق حضاري غربي كامل في إيجابياته وسلبياته ، وهكذا تجاهل كامل لمذهبيتنا وخصوصية حياتنا ومنطلقات تاريخنا وحضارتنا كأمة كريمة

يمكن أن تقوم بدور هام في إصلاح الخلل ومعالجة عرج الحضارة الغربية الذي يشكو منه وينقده كثير من مفكريها وفلاسفتها . (٢٦)

إن عدم الانطلاق من المذهبية الإسلامية في محاولة البناء الحضاري الجديد قد وجه الحياة في العالم الإسلامي في القرن الأخير وجهة لا دينية ولا حضارية أفقده الوحدة وعمّق فيه التجزئة القاتلة ، وانتهى به إلى محاولة تقليد نموذج غربي في التنمية نتجت عنها (لا تنمية) هائلة في العقل والروح والأخلاق والفوضى في التصنيع والتغيير وفقدان موازين صحيحة لضبط حركة الحضارة والتخطيط التنموي للحاضر والمستقبل .

ويكفي هنا أن نستدل بتجربة مفكرين عربيين كانا يتحركان لمدة طويلة في إطار المنظومة الحضارية الغربية ويدعوان لها : أولهما / هو الأستاذ منير شفيق . وثانيهما / هو الدكتور زكي نجيب محمود .

يقول الأستاذ / منير شفيق (على أن جانب الغزو الثقافي – الحضاري ، هو الاخطر والأشد فاعلية لأنه يكرس التجزئة كما يتغذى منها ، ولأنه يجعل الغرب يدخلون العقول والبيوت فيعهد إلى إبعاد الإسلام أيديولوجية وثقافة وحضارة ونهج حياة وإحلال أفكار الغرب وأيديولوجياته وثقافته وحضارته ونهج حياته وأنماطه المعيشية ، أي أن هذا الغزو يقوم بعملية تحطيم لأساسات استقلال الأمة ووحدتها وهويتها وقدرتها على النهوض ثم إلقائها في أحضان التبعية لأنماط الحياة الغربية .

ثم يضيف قائلاً : (ومن ثم يغدو من المحال الإحاطة بالتبعية ما لم تضرب السيطرة ضربة شاملة وترفض التبعية رفضاً شاملاً ، وهذا لا يكون إلا إذا خرجنا من الغرب بكل مدارسه بهويتنا الأصلية التي تقوم على ارض الإسلام ، وحققنا استقلالنا الحضاري والثقافي وخلعنا عنا مافرضه الغرب علينا في أنماط حياة ومعايير ومفاهيم ونظريات وأخلاق وفلسفات) (٢٧) .

ويقول الدكتور زكي نجيب محمود : (إننا لنبصر بأعيننا ونلمس بأيدينا كيف انتهى العلم الطبيعي والصناعة التقنية في البلاد التي تقدم فيها العلم وتقدمت الصناعة وكيف انتهى بها هذا العلم وهذه الصناعة إلى حالة من العرج الحضاري ، فكأنما هي تحجل على ساق واحدة . ثم يصيف قائلاً : (فلو استطعنا نحن أن نقدم للعالم مجموعة متّسقة الأجزاء من القيم الهادية للإنسان على طريق الحياة كان هذا دورنا في بناء الحضارة المعاصرة) . (٢٨)

استحضار الماضي :

لا بد لأية أمة عريقة في حضارتها ومنجزاتها التاريخية حين سقوطها الحضاري أن تستعيد أفضل ما في ماضيها ، وتتجنب أخطاءها ، لأن البداية من الصفر تنكّر لماضيها ، وقتل لواقعها واستغناء عن تجربتها البشرية لأزمان متطاولة .

ثم إن رؤيتها حال السقوط لا تكون أصيلة واضحة مختارة ، ما لم تستخرج دقائق الماضي وتقوم بعملية نقد الذات بتشخيص الأمراض وتحديد العلامات . والوعد لأمة ولو من باب الفرض – أن تستغني عن ماضيها وتبدأ حياتها الجديدة من منطلقات جديدة في حضارة تجابهها أو تغزوها فإن الأمة الإسلامية لن تستطيع فعل ذلك ، بل وليس في صالحها أن تفعل ذلك ، لأنها تمتلك عقيدة إلهية كاملة وشريعة ربانية حكيمة ، لا تخضع لحركة التاريخ في أصولها العامة وقواعدها الثابتة ومقاصدها

إن انفراد حكام المسلمين باتخاذ القرارات المصيرية الخطيرة في حالتي السلم والحرب قد كلفت المجتمعات الإنسانية الشاملة وانما تثبت حضورها الدائم من خلال كونها (منطلقاً) مستقلاً عن الزمان والمكان على الرغم من تأثيرها الكبير فيهما .

وكذلك تمتلك حضارة عقلانية علمية خصبة وتاريخاً مليئاً بالتجارب والصراعات والعبر ، إن الذي حصل إلى الآن من الفكر الإسلامي الذي وجد المسلمين غارقين في مأزق تاريخي يكاد يكون قاتلاً قد ركز المواجهة على تجسيد المجالين المذكورين أمام أنظار الجيل المعاصر :

أولاً : بشرح معالم الإسلام عقيدة وشريعة ونظاماً أخلاقياً سامياً ونماذج بشرية رفيعة من خلال دعوة الداعين ووعظ الواعظين وكتابات المفكرين وشعر الشعراء وأدب الأدباء .

ثانياً : بالكتابة عن تاريخ حضارتنا ومنجزاتها العلمية والإنسانية وإظهارها للبشرية في جوانبها المشرقة الكثيرة التي تكفي للافتخار بها أمماً كثيرة لا أمة واحدة .

ولو تركنا ذلك الماضي بما فيه من صفات وبيئات وجئنا إلى معركتنا في مواجهة الحضارة المعاصرة والمشاكل المتنوعة الخطيرة التي نعاني منها ، نجد أهداف الفكر الإسلامي فيه على الرغم من معالجتها لكثير من القضايا الحديثة لا ترتفع إلى مستوى التغير الحضاري المطلوب كماً وكيفاً ومساحة .

ولذلك فإن الحديث عن حاضرنا ومستقبلنا غدا أهم وأكثر ضرورة من استمرار الحديث عن ماضينا بكل أبعاده لسبب واضح هو أن ذلك الماضي ذهب مع الماضين ، واليوم حاضرنا ومستقبلنا اللذين علينا أن نفكر في جوانبهما بكل ما برز عندنا وعند غيرنا من تغيير وتطور .

لا بد في سبيل ذلك أن نخفّف الحديث عن الماضي البشري ونصّب اهتمامنا على ربط المذهبية الاسلامية بالحاضر والمستقبل لننتج فكراً جديداً وعلماً جديداً وحياة جديدة في ضوء المنطلقات الاسلامية الإلهية التي تلزمنا وحدها لا بتكرار التجارب الحضارية الماضية بصيغتها المحدودة ومراحلها المتتابعة .

وفي سبيل أن ننتشل الفهم الصحيح للإسلام من خلال ضوابطه المجمع عليها ، لا بد أن نقوم بعملية فرز تاريخي ، أقصد عملية فصل التاريخ عن الإسلام كي لا نتأثر بأحداثه واجتهاداته وسياساته في حكمنا على الإسلام وتحكيمنا إياه في قضايانا المعاصرة .

إن الحاضر والمستقبل هو عصر هزّة إنسانية كبيرة ، تتطلع الشعوب فيه إلى ما يسمى في المفهوم الغربي بـ (الديمقراطية) أفلا يجدر بالمسلمين اليوم أن يلتزموا بحكم الشورى الإسلامي الصحيح ويدعوا إليه بإصرار ويجعلوه بديهة من بديهات حياتهم اليومية .

وألا يجدر بالفكر الإسلامي اليوم أن يعمّق هذا الاتّجاه ويحوله إلى ثقافة إسلامية جماهيرية تعرف جيداً مالها وما عليها .

عجباً كيف يقتحم يهودي المسجد النبوي الشريف فيأخذ بخناق رسول الله (ص) فيقول له : يا محمد أين حقي ؟ ثم يخرج من المسجد مكرّماً ويعطى له حقاً ، ويؤمن الخلفاء الراشدون بذلك ويطبقوه في حياتهم ، ثم لا يستطيع المسلم اليوم أن يكون له رأي في حاكمه ولا يستطيع أن يقول له إن انحرف أو أخطأ : اتق الله في عقائد المسلمين وبلادهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم . الإسلامية في القديم والحديث كثيراً من المآسي والويلات التي مزقتها ودمرت مؤسساتها الحضارية وأفقرت خزائنها وسلّمتها إلى الأعداء .

لو كانت الأمة واعية بعقيدة التوحيد ، وعلماء المسلمين صادقين مع الله تعالى ، يقودون الركب الإسلامي ويواجهون الحكام بحقائق الإسلام وحكمه الشوروي العادل . لم يتجرأوا عليهم هذه الجرأة كلها ، ولم يحيطوا أنفسهم بمراكز القوى السرية والعلنية الرهيبة لسحق كرامة المسلمين والحيلولة بينهم وبين استشعار آدميتهم والمطالبة بالحد الأدنى من تحقيق ذواتهم وأداء دورهم الكامل في الحياة بلا خوف ولا تردد ولا إحجام . هذه قضية واحدة تتصل بحرية المسلم السياسية العامة في النظر إلى شئون بلده ومصير أمته .

وأما قضية حريته الاجتماعية ، فهي أخطر وأعظم وأكثر استلاباً لكرامة المسلم ، لأن الإنسان يمكنه في كثير من الأوقات أن يشتري كرامته السياسية العامة بالسكوت فيسلم ويرضى بأخفّ العذرين وأضعف الإيمان ، ولكن كيف يمكن للجياع في المجتمعات الإسلامية أن يحتفظوا بكرامتهم ويشعروا بالحد الأدنى من إنسانيتهم ؟ .

إننا نحتاج أن نقول مرة أخرى : يجب أن نبدأ في معالجة هذه القضية من المذهبية الاقتصادية الإسلامية العادلة المتوازنة التي كرّمت الإنسان وبوّأته المقام الأعلى .

أجل نبدأ من المذهبية الإسلامية ونترك التاريخ الإسلامي وأخطاءه وما وقع في معظم فتراته من الاستغلال ونهب ثروات الأمة من قبل الحكام وكبار الملاك الظالمين والوزراء وأهل الحظوة من سارقي قوت جمهور المستضعفين .

ولكي لا نبخس حق تاريخنا ، لو قارنّا كل ما جرى في تاريخنا من قبائح سواءً على الصعيد السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي بما حصل للأمم الأخرى من قبل طغاتها في الفترات نفسها في هذه المجالات خاصة ، لكان الظالمون في تاريخنا عادلين في الأمم الأخرى .

ولكننا لا نرضى قط أن يقيس المسلم نفسه في أية فترة بالآخرين بل لا بد دوماً أن يوازن نفسه بما يريده منه الإسلام وما شرع لحياته من مبادئ الحق والعدالة والأخوة والتكامل .

ولو قارنا واقع التاريخ الاقتصادي الإسلامي بمذهبية الإسلام الاقتصادية القائمة على أساس العدل والحق وتحقيق التوازن الاجتماعي لوجدنا أنها لم تتحقق على الوجه الأكمل بعد الخلافة الراشدة وإلى اليوم باستثناء فترة حكم الخليفة الخامس الراشد عمر بن عبد العزيز . لا نريد هنا الخوض في تفاصيل وأسباب وقعت في تاريخنا المتقدم ولكننا ندعو إلى معالجة هذه القضية في الحاضر والمستقبل .

وحاضرنا الاقتصادي في معظم البلاد الإسلامية قائم على ظلم اجتماعي واضح وسوء توزيع للثروة وعدم إعطاء الفرص المتكافئة للجميع للحصول عليها ووجود بون شاسع بين مجموعات من الأمة غنية جداً ومجموعات أخرى فقيرة جداً .

ولن يستطيع الفكر الإسلامي أن يغيّر إلا إذا بنى مذهبيته الاقتصادية على أساس المنطق والاقناع وبدأ بالبنى التحتية لكي تعيد إليها المشروعية الإسلامية في إيجاد توازن عادل لإحداث تنمية اقتصادية تمهّد لسقوط الهياكل الاقتصادية وغير الاقتصادية الظالمة المترفة التي تقف فوقها .

إن الفكر الإسلامي الحديث لا بد أن يلم شتات الأفكار الإسلامية المتنوّرة المبعثرة التي تقف دون وحدتها عقبات في مجالات الحياة كافة فتربط بينها في وحدة منطقية متجانسة تعبر عن روح العصر ، فتحولها إلى تيار عقيدي إسلامي واضح يبدأ بالتغيير في إطار مراعاة سنن الله في الوجود كي يزحزح أمامه جميع (الأيديولوجيات)التي يطلقون عليها في المصطلح الغربي : اليمين واليسار .

والفكر الإسلامي لن يستطيع أن يفعل ذلك إلا إذا قطع الصلة بكل التيارات أو الاجتهادات الخاطئة المظلمة في تاريخنا ، والتي يراد لها اليوم في لهاث مكشوف أن تضع حاضرنا ومستقبلنا من خلال تقديمها وكأنها هي الإسلام بعينه . ولا بد أن نعدّ كل تيار أو اجتهاد تاريخي مظلماً على الأقل بالنسبة إلينا في العصر الحاضر ، ما لم يضع حياة المسلم المعاصر في ظل (المذهبية الإسلامية) الرافضة للأفكار التاريخية المرحلية التي كانت نتيجة ظروفها الزمانية والمكانية .

وما لم يحقق مصالح الجمهور الأعظم من أبناء الأمة الإسلامية في حريتها العقيدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية .

إن الفكر الإسلامي اليوم لابد أن يعتبر بما حدث في الماضي ، والذي حدث في الماضي أن التيارات الهادمة لمقومات الأمة العقيدية والحضارية كالخرمية والقرامطة وحركة الزنج والباطنية عامة ، تقدمت إلى تنفيذ مخططاتها متسربلة بمقاومة السلطة الرسمية وإنقاذ المظلومين والكادحين ، ولما وجد المسلمون بأن هؤلاء الملاحدة والهدامين هم الذين يقودون الثورات ويدعون إلى تحقيق العدل انقسموا بشأنهم إلى تيارين :-

فكثير من المظلومين لا سيما العوام منهم قد انخرطوا في تلك الدعوات ظناً منهم أن أصحابها قادة الإصلاح والمكافحون ضد الظلم واتجه كثير من العلماء إلى تيار الدفاع عن الإسلام لعلمهم بحقيقة حركة هؤلاء الهدامين الذين كانوا يتحركون كذباً تحت قبه الثورة أو الإصلاح ، فابتعدوا بذلك عن القضية الأساسية التي كان عليهم أن يناضلوا عنها ، مع تثبيت العقيدة والمقومات وهي قضية المحرومين والمظلومين . وكان المستفيدون الحقيقيون من ذلك الصراع هم المتأمرين حيث أعملوا معاولهم في جسم الأمة الإسلامية ، وكذلك الظالمون من أهل السلطة وحواشيهم .

ولقد استغل الملاحدة وكثير ممن يحومون حولهم من العلمانيين في عصرنا الحاضر ذلك الصراع التاريخي ، فذهبوا إلى أن علماء الإسلام كانوا يدافعون عن السلطة ، فدافع هؤلاء بدورهم عن المتآمرين الهدامين ، وعدوهم أحراراً وثوريين وعقلانيين متنورين ، والحال أنك لو قرأت أفكار تلك الفرق الهدامة في كتبها وأخبارها الموثقة تقتنع تماماً أنهم كانوا في الحقيقة ملاحدة أو مشركين أو يهوداً متآمرين تقدموا إلى المجتمع الإسلامي من خلال الخرافة والفلسفات المادية أو الغنوصية للسيطرة على عقلية العوام ، مستترين وراء الشعارات المحببة إلى نفوس المظلومين في تلك الأزمان الذين كانوا مهيئين لاتباع كل من كان يدّعي خطة لإنقاذهم من الأوضاع المزرية والانتقام من ظالميهم

إن هؤلاء استغلوا أوضاع المظلومين والمستعبدين من أجل مقاومة السلطة التي دخلوا معها في الصراع ، لا من أجل انتشال هؤلاء المستضعفين المحرومين بل من أجل السلطة .

والا فماذا فعل المزيفون الإسماعيليون عندما تسلموا السلطة في شمال أفريقيا وفي بلاد الشام ؟

إن أوّل شئ فعلوه هو أنهم قدّسوا أئمتهم وأسبغوا عليهم الصفات الإلهية التي كانوا قد هيأوا لها في رسائلهم الفكرية السابقة ، فتحكموا في رقاب الناس واستعبدوهم وسرقوا أموالهم فتمتعوا بها في قصورهم وملذاتهم ، وسقطت بذلك شعارات الدفاع عن المظلومين والمعذبين ، وظهروا أمام التاريخ على حقيقتهم وهي أنهم لم يعادوا السلطة العباسية إلا من أجل السيطرة والسلطة ، وتسليم الأمة إلى الأعداء عبر تحالفات تاريخية معروفة بينهم وبين أعداء الإسلام انتهت بتدمير الحضارة الإسلامية في بغداد ، والتحالف مع الصليبيين لإقامة مجازرهم التاريخية المعروفة في بلاد الشام .

إذن فالمظلومين كانوا دائماً بيئة خصبة لأعداء الإسلام من الملاحدة والهدامين فلماذا يستمر اليوم عدم الوضوح الجماعي في قضية انحياز الفكر الإسلامي إلى جانب الظلمة والمستكبرين ؟ (٢٩)

إن كون الإسلام جاء رحمة للعالمين ، لا يمكن في ظل تحريك أي أصل من أصول فهمه السديد أن يوجه إلى تحقيق مصالح الطبقة لتوسيع دائرة ظلمها ، وإنما تلك الرحمة الإلهية موجهة أولاً لتحقيق مصالح الجمهور الأعظم من عباد الله في المجتمع الإسلامي .

وبناء على تلك القاعدة القرآنية الواضحة ، فالمطلوب من مفكري الإسلام وعلماءه أن يحولوا الفكر الإسلامي إلى أداة تغييرية فاعلة ، ترفع الهوان عن الأمة وتزحزح الاستعباد عن مواقعه وتعيد إلى المجتمع التوازن في الاستمتاع العادل بالطيبات ، وتنقذهم من مآسي الخوف والتردد والتسخير .

إن الفكر الإسلامي اليوم لو انطلق من المذهبية الإسلامية الشاملة في الوجود واعتمد الأصول والقواعد الشرعية ومقاصدها الحقيقية في بناء المجتمع الإسلامي ، لتحول إلى حركة تاريخية ضخمة اقتلعت جذور الفساد في الأمة ، ذلك لأن الإسلام جذوره عميقة ضاربة في أعماق ماضينا وحاضرنا ، يحتاج فقط إلى مخطط جماعي فكري واعٍ مدرك لطبيعة العصر وحركته الجماهيرية الصاعدة من أجل استخلاص حقوق البشر من غاصبيها الجزارين .

ولابد ألا يقتصر الفكر الإسلامي الحديث في التغيير على إصلاح الوعي الاجتماعي ، وإنما يجب التخطيط الشامل من أجل الانتقال إلى تصحيح الواقع الاجتماعي ، وإلا كان فكراً سطحياً ، لا تتعمق جذوره في واقع الحياة ويوم يتم ذلك وقد ظهرت بوادره بإذن الله فلن تستطيع قوى الإلحاد والعلمانية أن تتصدر المجتمعات الإسلامية لتدمير مقومات وحدتنا العقيدية تمهيداً لتسليمها إلى الأعداء .

الهوامش

(١)نقلاً عن كتاب (لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم) للأمير شكيب أرسلان ٤١/١ بتصرف .
(٢)نقلاً عن كتاب (لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم) للأمير شكيب أرسلان ٤١/١ بتصرف .
(٣) انظر كتاب واقعنا المعاصر للاستاذ / محمد قطب ص٥١ ٠(٤)واقعنا المعاصر ص٦٤ بتصرف ٠
(٥)المصدر السابق ١٦٩ ٠ (٦)مما قاله هؤلاء : أنهم فشلوا في تنصير المسلمين رغم الجهود التي بذلوها .
(٨)مذاهب فكرية معاصرة / ٢٥١ ٠(٩)المصدر السابق / ٢٥٢
(١٠)الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر للدكتور / محمد البهي / ١٤١
(١١) المصدر السابق / ١٤٢ ٧) نقلاً عن كتاب : الغارة على العالم الإسلامي / ٥٧ – ٥٨ ٠٥) المصدر السابق ١٦٩
٠ ١٢) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر / ٥١١ ٠ (١٣)مذاهب فكرية معاصرة / ٦٤٢ وما بعدها .
(١٤) نقلاً عن كتاب : المستقبل لهذا الدين/ ٨٣ ٠(١٥) المصدر السابق / ٧٢ ، مذاهب فكرية معاصرة / ٦٥٢/٦٤٥
(١٦)مذاهب فكرية معاصرة/٦٥١ – ٦٥٢ ٠(١٧)لأعمال الكاملة للإمام محمد عبده/ ٠١٩(١٨) المصدر السابق/ ٤١
(١٩) هذه ترجمة مقتضبة عن بطاقة حياة الإمام الشيخ / محمد عبده وللمزيد من التفاصيل راجع كتاب الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده / ٣٦/٣٥ للدكتور محمد عمارة .
(٢٠)فلسفة الحضارة – ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ص٦ وما بعدها ط١ القاهرة .
(٢١)انظر كتاب تكوين العقل العربي د.محمد عابد الجابري ص١٨،ودراسات حول الاسلام د. حسين مروه ص٤٧ –٤٩
(٢٢)راجع على سبيل المثال : سلسلة : نظام الإسلام ، الإسلام والفكر العلمي للاستاذ / محمد المبارك ، خصائص التصور الاسلامي للشهيد سيد قطب ، الانسان بين المادية والاسلام للاستاذ / محمد قطب .
٢٣)راجع كتاب : قصة الحضارة لـ (بول ديورانت) مقدمة في تاريخ الحضارات للدكتور / طه باقر .
(٢٤) للمزيد من التفاصيل راجع الكتب : خصائص التصور الإسلامي للشهيد سيد قطب ، نظام الاسلام للدكتور محمد المبارك ، عود الإسلام رجاء جارودي ، المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري ، منج التغيير في الإسلام للدكتور محسن عبد الحميد .
٢٥) انظر المذهبية الإسلامية / ٧٩ وما بعدها .
(٢٦)راجع كتاب / أفول الغرب لشبيخلر ، فلسفة الحضارة لألبرت اشفيتر ، دراسة في التاريخ لتوينبي ، حوار الحضارات لغارودي .
(٢٧)الإسلام في معركة الحضارة / ١٩٨ ٠ (٢٨)ثقافتنا في مواجهة العصر / ٩١/٩٠
(٢٩)) لدراسة حقيقة هذه الحركات الهدامة راجع / أصول الاسماعيلية لبرنارد لويس والمقدمة بقلم الدكتور عبد العزيز الدوري ، وطائفة الاسماعيلية للدكتور مصطفى كامل حسين ، تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في الإسلام لـ محمد عبد الله عنان

ثبت المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم
١ – لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم الأمير شكيب أرسلان – طبعة بيروت .
٢ – واقعنا المعاصر الاستاذ / محمد قطب
٣ – مذاهب فكرية معاصرة ٠ د. محمد البهي
٤ – الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر ٠ د. محمد البهي
٥ – الأعمال الكاملة الإمام / محمد عبده ٠ د. محمد عمارة

٦ – فلسفة الحضارة ٠ ترجمة د. عبد الرحمن بدوي ط. القاهرة
٧ – تكوين العقل العربي ٠ د. محمد عابد الجابري
٨ – دراسات حول الإسلام٠ د. حسين مروه
٩ – نظام الإسلام ٠ د. محمد المبارك
١٠ – الإسلام والفكر العلمي ٠ د. محمد المبارك
١١ – خصائص التصور الإسلامي ٠ الأستاذ الشهيد / سيد قطب
١٢ – الإنسان بين المادية والإسلام ٠ الأستاذ / محمد قطب
١٣ – الإنسان في القرآن الكريم ٠ الأستاذ / محمود العقاد
١٤ – قصة الحضارة ٠ بول ديورانت
١٥ – مقدمة في تاريخ الحضارات ٠ د. طه باقر
١٦ – عود الإسلام ٠رجاء غارودي
١٧ – المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري٠ د. محسن عبد الحميد
١٨ – منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام ٠ د. محسن عبد الحميد
١٩ – أفول الغرب ٠ شبيخر
٢٠ – فلسفة الحضارة ٠ ألبرت اشفيتر
٢١ – دراسة في التاريخ ٠ توينبي
٢٢ – حوار الحضارات ٠غارودي
٢٣ – أصول الاسماعيلية ٠ برنارد لويس مع مقدمة د. عبد العزيز الدوري
٢٤ – طائفة الاسماعيلية ٠ د. مصطفى كامل حسين
٢٥ – تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في الإسلام د. محمد عبد الله عنان